الى حبيبتى ونور عينى
الى من أهدتنى هذا الكتاب
ومن قبله أهدتنى قلبها
أهديه اليها

كان يا ما كان

سلّم السّاحرة

وقصص أخرى

مكتبتى

محمد سعيد العريان   أمين دويدار

محمود زهران

دار المعارف بمصر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

22

كان يا ما كان

مجموعة قصص وحكايات طريفة أخرجت في أسلوب مشوق بليغ يعيش الطفل بها في أجواء من السعادة تجبره على قراءتها دون ترك حرف واحد منها . قام بتأليفها أساتذة مربون مشهود لهم بالخبرة الطويلة والدراية والذوق الأدبي السليم .

صدر منها :

- سلم الساحرة
- جزيرة اللؤلؤ
- مدينة العجائب
- الشباك الساحر
- الصندوق الصغير

Dr. Ahmed Mady

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان يا ما كان

• سلم الساحرة
• منظار الأسرار
• القرية الملعونة

تأليف

محمد سعيد العريان — أمين دويدار

محمود زهران

دار المعارف بمصر

١٩٦٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سلم الساجرة

١

فى قرية « سَرْحان »، كانت ثلاثةُ أشياءَ مشهورةً جدًّا، يعرفُها أهلُ القرية جميعًا: أحدُها حمارُ « يونسَ الخُضَرىّ » ، وثانيها بيتُ الساحرة العجوز ، وثالثُها الحكيمُ « بَهْمان » .

* * *

أما الحمارُ فكان الناسُ يعرفونه بصوته المنكر ، ونهيقه المستمر ؛ حتى لقد كان أكثرُ من نصف سكان القرية ، يستيقظون كلَّ صباح على نهيقه المزعج ، ويستغْنون به عن صياح الديوك ، وعن دقات الساعة القائمة فى ميدان القرية ؛ وكان حماراً مكاراً عنيداً ، لا صبرَ له على العمل ولا طاعة ؛ وكان صاحبُه يونسُ الخضرىُّ يعانى منه أشدَّ العناء ، ولا يكادُ يجدُ معه شيئًا من الراحة . إذا غَفَلَ عنه لحظة ، حلَّ رباطَه وولَّى هاربًا نحوَ الحقول ، فما يزالُ يبحثُ عنه حتى يجدَه بعد العَناء والمشقة ، فيعودَ به إلى عربة الخُضَر ، يشُدُّه إليها ، ويربُطه فى عَريشها ، وهو لا يكُفُّ عن النَّهيق والزَّعيق .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما بيتُ الساحرة العجوز ، فكان بيتًا قديمًا خَرِبًا ، فى زُقاق ضيق مسدود ، فى طرَف من أطراف القرية ؛ ولم يكنْ يسكنُه أحدٌ من الناس . وكان أهلُ القرية يزعمُون أن ساحرةً عجوزاً كانت تقيمُ به فى قديم الزمان ، فلما ماتت ظل مهجوراً لا يسكنُه أحد ؛ ومن أجل ذلك كان مُوحشًا خربًا ، يخافُ الناس أن يقتربوا منه . وعلى مر السنين تهدمت جُدرانه ، وسقط سقفه ، ولم يبقَ منه إلا سُلَّمٌ خشبى قائم ، كانت تقعُ عنده بعض الحوادث العجيبة ، فى يوم معيَّن من أيام الصيف كلَّ عام ؛ فإذا ساقت المصادفةُ أحداً من أهل القرية إلى هذا السلَّم المسحور ، فى ذلك اليوم المعين من أيام الصيف ، مسَّه السحْر ، فتقعُ بعضُ الحوادث العجيبة ، وتحدُث بعض الخوارق المدهشة . . .

وما يزال أهل القرية يَحْكون عن ذلك السلَّم حكايات عجيبة ؛ فيزعُمون أن لصًّا سطا فى يوم من تلك الأيام المعهودة ، على بيت من بيوت القرية ، فسرق منه جَدْيًا ، وفرَّ به إلى بيت الساحرة ، يحاولُ أن يختبئَ فيه ؛ فلما صار عند السلم ، مسَّه السحْر ، فتصلَّب جسدُه ، وتسمَّر فى مكانه ، كأنه تمثالٌ من حجر ، وأفلت الجدىُ منه وراح يعدو إلى صاحبه . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويزعُمون كذلك أنهم شاهدوا ذاتَ مرة ، فى ذلك اليوم الموعود من أيام الصيف ، خروفًا واقفًا فوق هذا السلم ؛ فلما جرى إليه الناسُ ليمسكوه ، نبت له جناحان طار بهما فى الفضاء ؛ ولم يزل طائراً حتى حطَّ فوق مئذنة المسجد ، ووقف يغنِّى بصوت عجيب ، هو مزيجٌ من تغريد البلابل ، ومَأمَأة الخرفان . ولم يشكّ الناسُ حين رأوا هذا المنظر ، وسمعوا ذاك الغناء ، أن ذلك الحيوانَ العجيبَ ليس خروفًا ولا طائراً ، ولكنه شيءٌ آخرُ لا يعرفونه ، قد مسَّه السحرُ فانقلب إلى خروف ذى جناحين . . . .

وكان بعضُ الناس لا يصدقون هذه الحكايات ، ويرَوْنها أموراً غيرَ معقولة ؛ ولكن كثيراً من سكان القرية ، كانوا يؤكدون أنهم شاهدوا ذلك بأعيُنهم ؛ كما شاهدوا ذاتَ مرة فلاحًا كان عائداً من السوق ، ومعه قفصٌ من الدَّجاج ، فجلس يستريحُ قليلا عند هذا السلم ؛ فلم يلبَثْ أن مسه السحر ، فانقلب ديكًا عجيبًا . جسمُه كجسم الدَّجاج ، ووجهه كوجه الإنسان ، وظلَّ يصيحُ صياحًا مؤلمًا ؛ فتجمَّع الناسُ عليه ، وأخذوا ينظُرون إلى خلْقته العجيبة مدهوشين ؛ فلما جاء المساء ، عاد إنسانًا كما كان ، فحمل قفصَ الدَّجاج فوقَ رأسه ، وروَّح إلى داره . وكان الرجلُ نفسُه يَحكى هذه الحكاية ، ويستشهدُ على صحتها بكثير من أهل القرية ، الذين رأوْه بأعينهم فى ذلك اليوم .

ولكنَّ هذه الحوادثَ التى كانت تحدُث عند ذلك السلم ، لم تكن تقعُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا مرةً واحدةً فى كل عام ، فى ذلك اليوم المعهود من أيام الصيف . . حقًّا لقد كان ذلك السلَّمُ عجيبةً من عجائب هذه القرية !!

* * *

وأما الحكيمُ بَهمان ، فقد كان رجلاً غريبَ العادات ، عجيبَ الصفات ؛ وكان يعيشُ هو وزوجتُه العجوزُ منفردَين ، فى بيت صغير على حدود القرية ؛ وكان من عادته أن يخرُجَ كلَّ يوم فى الصباح الباكر ، يجُولُ فى حقول القرية صامتًا ، لا يحدث أحداً ، ولا يلتفتُ إلى أحد ؛ فلا يراه الناس إلا ماشيًا بين الحقول يفكرُ ويتأملُ ، أو جالسًا وحده يقرأ فى كتاب ؛ فإذا كان وقتُ العصر ، رآه الناسُ فى منزله ، يتناوَل الشايَ مع زوجته العجوز ، فى حجرة تُشْرف على الطريق ، أو تحتَ عريش الكَرْم فى حديقة داره الصغيرة . ولكنه مع عُزْلته وانفراده عن الناس ، كان لطيفًا هادئ الطبع ، يساعدُ الناسَ فى كل ما يطلُبون ، ويجيبهُم عن كل ما يسألون .

ومع أنه عاش فى هذه القرية عُمراً مَديداً ، فقد كان لا يصدقُ شيئًا مما يَرْويه الناسُ عن سلم الساحرة ، ويزعمُ أن ذلك كله خرافاتٌ وخُزَعْبَلاَت ، لا تدخُلُ فى عقل عاقل ، ولا يُصدقُها إنسانٌ رشيد .

لم يكن أحدٌ فى القرية يجهلُ هذه الأشياء الثلاثة : الحمارَ المرَّاب ، وسلَّمَ الساحرة ، والحكيمَ بَهْمان .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢

وفى صباح يوم من أيام الصيف ، استيقظ يونسُ الخضرىّ مبكراً كعادته ، فهبَط إلى مربَط الحمار ، قبل أن ترسلَ الشمسُ أشعتَها على الكون ، فتنيرَ الدنيا وتُوقظَ الناس ؛ وكان قد ربط الحمارَ قبل أن ينامَ — كما يفعلُ فى كل ليلة — بحبل متين ، جعل أحدَ طرَفيه فى عُنُقه ، وجعل الطرفَ الآخرَ فى وَتَد غليظ دقَّه فى الأرض ؛ ولكن الحمارَ فى تلك الليلة ، كان قد عزم على الهرَبَ بأى وسيلة ، فأخذ يعالجُ الحبلَ ليفُكَّه ، ويعالجُ الوتَد ليخلعَه ، فلم يستطعْ أن يفكَّ الحبل ، ولا أن يخلعَ الوتد ؛ فلما أعْيَتْه الحيلة ، لوَى عُنُقَه ، وقبض على الحبل بأسنانه ، وأخذ يقرِضُ فيه حتى انقطع ؛ ولكنه لما أراد الهرب ، وجد باب الزريبة مُغلَقًا ، فاختبأ وراءَ الباب مستعدًّا ، يتحيَّنُ الفرصةَ للفرار .

فلما نزل يونسُ الخضرى ، كان أثر النُّعاس لا يزالُ فى عينيه ، وكانت الزريبةُ ما تزالُ مظلمة ؛ ففتح البابَ ببطء ، وخطا خَطوةً إلى الداخل ، ثم وقف يتمطَّى ويتثاءب ، وانتظر قليلا حتى تألَفَ عيناه الظلام ؛ فانتهز الحمارُ هذه الفرصة ، وتسلل هاربًا ، فلم يره يونسُ الخضرى ، ولم يُحسَّ به إلا حين سمع وقْعَ حوافره تدُقُّ على الأرض ، وهو يعدو منطلقًا فى الطريق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انطلق يونسُ يعدو وراء الحمار هائجًا مغتاظًا ، وهو يصيح : لن تُفلتَ من يدى أيها الحمارُ الخبيث ؛ وسأقبضُ عليك وألْهبُ ظهرَك بالعصا ، حتى تُقْلعَ عن هذه العادة ، وتتعلمَ كيف تطيعُ أمرى !

واستمر الحمارُ يعدو ، والخضرىُّ يعدو وراءه ، متنقلا من حارة إلى حارة ، ومن شارع إلى شارع ، حتى ترك القريةَ وخرج إلى الحقول .

ولم يزَل الحمارُ يعدو بين الحقول ، ويونسُ الخضرىُّ يطارده ، حتى بلغ الترعة ؛ وهنالك وقف الحمارُ متحيراً ، لا يستطيعُ أن يتقدم ، ولا يستطيعُ أن يتأخر ؛ فصاح به يونس : الآن وقعتَ فى يدى أيها الحمارُ اللئيم . . .

ولكن الخضرىَّ لم يكَدْ يُتمُّ كلمتَه ، حتى كان الحمارُ قد استدار مسرعًا ، وانطلق عائداً نحوَ القرية ، ومضى يتنقلُ فيها من حارة إلى حارة ، وصاحبُه يتبعُه ، حتى وصل إلى ذلك الزُّقاق الذى ينتهى إلى بيت الساحرة العجوز ، فصاح الخضرىُّ مسروراً : أما فى هذه المرة ، فلن تُفْلتَ من يدى ، فإن الزقاقَ مسدود ، ولا مفرَّ لك

فى هذا اليوم ، كان الحكيمُ بهمانُ قد خرج يجولُ كعادته فى كل صباح ، حتى انتهى إلى ذلك الزقاق المسدود ؛ ويظهرُ أنه فى هذا الصباح ، قد راقَ له أن يُشرفَ على القرية كلها من مكان عال ، وكانت الشمسُ لم تَشرُقْ بعد ؛ فصعد على سلم الساحرة ، ووقف يُجيلُ عينيه فى الفضاء البعيد ، متأملا مفكراً . وكان الحمارُ الهرَّابُ

قد انتهى إلى السلم ، فرأى الطريق مسدوداً ، فوقف متحيراً ينظرُ حواليه ، باحثًا عن طريق يفرُّ منه ؛ ثم لم يلبثْ يونسُ الخضرىُّ أنْ وصل ، وأبصر الحكيمَ بهمانَ واقفًا على رأس السلم ، فصاح به قائلاً : أرجوك ! أرجوك يا سيدى الحكيم ، أن تساعدنى فى القبض على هذا الحمار الملعون ، فقد أتعبنى كثيراً فى هذا الصباح !!

كان الحمارُ لم يزل فى حَيرته عند أسفل السلم ، فنظر إليه الحكيمُ وهو يقولُ ليونس : لا تخَفْ ، لا تخف . . . سأقبضُ عليه .

فلما سمع الحمارُ صوتَ الحكيم ، رفع إليه رأسَه لينظر ؛ فالتقى نظرُ الحمار بنظر الحكيم بهمان . . .

وهنا حدَث شىءٌ عجيبٌ جدًّا ، فى أسرعَ من لَمْح البصر ، انقلب بهمانُ الحكيمُ إلى حمار ، وانقلب الحمارُ إلى إنسان فى هيئة بهمانَ الحكيم ، وظل كل منهما فى مكانه . . .

ونظر يونسُ الخضرى ، فإذا الحمارُ على رأس السلم ، وإذا الحكيمُ عند أسفله . . .

ولم يكن يونسُ الخضرىُّ قد أدرك شيئًا مما حدث ، فجرى مسرعًا نحوَ السلم ، وهو يقولُ للرجل الواقف عند أسفله : أشكرُك ، أشكرك كثيراً أيها الحكيم . . . ثم قال كأنه يحدثُ نفسه : ولكنْ كيف استطاع هذا الحمارُ الخبيث أن يصعدَ إلى فوق ، وقد كان منذ لحظة تحت السلم ؟ . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم صعِد إليه ، وجعل يجرُّه حتى نزل به وهو يقول : ستذوقُ جزاء هربك وعصيانك أيها الحمارُ اللئيم ! !

٣

لم يكن يونسُ الخضريُّ يدرى أنه يجرُّ بهمان الحكيم ؛ لأنه كان يعتقدُ أنه حمارُه . أما الحمارُ الذى تحوَّل رجلا ، فقد سرَّهُ غاية السرور أن صاحبَه لم ينظُرْ إليه ، ولم يفكرْ فيه ؛ واستعجب غاية العجب ، حين رآه ينحنى له باحترام ويشكرُه ، ثم يمسك بدله حماراً آخر . ولكنّ الذى كان مغتاظًا جداً ، ومتحيراً جدا ، هو بهمانُ الحكيم . . . فقد رأى نفسَه حماراً ، له أربعُ أرجل . وأذنان كبيرتان ، وذيلٌ طويل ، وطَوْقٌ ثقيلٌ فى عُنقه ، يجرُّه منه يونس الخضرى . . .

وقد تألَّم بهمانُ ألمًا شديداً لهذه الحالة التى صار اليها ؛ واشتد ألمُه حين أراد أن يتكلم ، ليخبرَ عن حاله ويكشفَ عن حقيقته ، فلم يخرجْ صوتُه إلا نهيقًا كنهيق الحمار : « هاق ! هاق ! هاق ! هاق . . . » صوتٌ قبيحٌ منكر ، لا يفهمُ أحدٌ منه شيئًا .

صاح بهمانُ الحكيم يقول : يا يونس ، أنا الحكيمُ بهمان ؛ فدَعْنى ، وأدركْ حمارَك قبل أن يُفلت . . .

فخرجت الكلماتُ من فمه نهيقًا . . . « هاق ! هاق ! هاق ! هاق . . . » فضربه يونسُ بعصاه على جنبه ، وصاح به غاضبًا :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كفى نهيقًا أيها الحمارُ اللئيم . . .

فصاح بهمان : لا تضربنّى يا يونس . . . قلت لك إننى أنا بهمان . . . ولست الحمار . . .

فخرج الصوتُ كذلك ، « هاق ! هاق ! هاق ! هاق ! » فانهال عليه يونسُ بعصاه صائحًا : كُفَّ عن هذا النهيق أيها الحمار ، وإلا قطَّعت جلدك بالعصا . . .

ثم وثب إلى ظهره فركبه ، ومضى به فى طريق القرية ، وهو تحتَه يصيحُ على طول الطريق ثائراً صاخبًا ، غاضبًا محتجًا ؛ ولكن ثورتَه وصَخَبَه ، وغضبَه واحتجاجه . لم تكن تصلُ إلى آذان الناس إلا نهيقًا كنهيق الحمير : « هاق ! هاق ! هاق ! هاق ! » . . . هو يظُنُّ أنه يتكلم ، وأن كلامَه مفهوم ، والناسُ لا يسمعون منه إلا نهيقًا مزعجًا ، يُصِمُّ الآذان ، ويصدعُ الرءوس

مسكينٌ هذا الرجل . . . لقد صار فى نظر الناس حماراً ، لا يعرفُ حقيقتَه أحد ، ولا يفهمُ كلامه أحد . . .

وهكذا ظلَّ يَنْهِقُ طولَ الطريق ، وظلَّ يونسُ الخضرىُّ على ظهره ، حتى وصل به إلى داره ؛ وهناك أخذ يحاولُ أن يربُطَه إلى عربة الخضر التى يعلقُ بها حمارَه ، ليسرَحَ ببضاعته كما يفعلُ فى كل يوم !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤

هذا ما كان من أمر يونس الخضرى وبهمانَ الحكيم الذى تحوّلَ حماراً .. أما الحمارُ الهرّاب ، الذى صار إنساناً فى شكل بهمانَ الحكيم ، فقد ظل واقفاً فى مكانه عند السلم ، حتى ذهب صاحبُه يونس ، واختفى عن عينيه ؛ وحينئذ تنفّس مسروراً بخلاصه من أسْر صاحبه ، وزاده سروراً أنه فى هيئته الجديدة وزيه الجديد ، قد صار شيئاً آخرَ لا يعرفُه يونس ؛ فلن يحاولَ بعد اليوم أن يُمسكَه ، ولن يربُطَه فى تلك الزريبة المظلمة كلَّ ليلة ، ولن يشُدَّه فى الصباح إلى عَربته الثقيلة ، ليقطعَ بها المسافات البعيدة ، تحت الشمس المحُرْقة ؛ ولن يذوقَ بعد اليوم عصاه القاسيةَ المريرة . . .

ثم انطلق يمشى فى طريق القرية حُرًّا طليقاً ، لا يخافُ أحداً ، ولا يهتمُّ بأحد .

وبينما هو يمشى ، مد يدَه إلى جيب سُتْرته ليعرفَ ماذا فيه ، فإذا كتابٌ صغير ، له غلافٌ من الجلد ، كان بهمانُ الحكيمُ قد وضعه فى جيبه ، ليتسلَّى بقراءته فى ذلك الصباح ؛ فأخرجه الحمارُ من جيب السترة ، ونظر إليه بنَهَم ، ثم نزَع عنه جلدتَه . وأخذ يقضِمُهما قَضْماً ، ويمضُغُهما مَضْغاً ، ويبلعُها بلعاً ، وهو مسرورٌ بهذه الأكلة اللذيذة ! . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومرّ به جماعةٌ من أهل القرية ، فدهشوا حين رأوْه يأكلُ غلافَ الكتاب ، وقال بعضُهم لبعض: انظروا . . . إن بهمان الحكيمَ يأكلُ جلدَ كتابه . . ! يا تُرَى ماذا أصاب عقلَه ؟

ثم اقترب منه أحدُهم وقال له : ياسيدى الحكيم ، ماذا تأكل ؟

فرد عليه مبتسمًا يقول : يا له من طعام لذيذ . . . ليتك تَذوقُه لتعرفَ لذّتَه . . !

وكان فى تلك اللحظة قد فرَغ من التهام جلدة الكتاب ، فأخذ يأكلُ الورق ، ورقةً بعد ورقة ، حتى أتى عليه كله ؛ وكأنما استلذّ طعمَ الجلد ، فجلس على جانب من الطريق ، وخلع فرد من حذائه ، وأخذ يقضِمُها ويمضُغُها وهو متلذّذٌ مسرور ، حتى أكل الجلد ، والرباط ، والنعل ؛ ثم خلع الفردةَ الأخرى ، واستمر يقضِم ويمضُغ ، والناس ينظرون إليه مدهوشين ، يقول بعضُهم لبعض : لقد جُنّ بهمان الحكيمُ ولا شك . . .

فلما فرغ من أكل حذائه ، استأنف سيره حافيًا ، والناسُ يتبعونه جماعات ، حتى وصل إلى حقل فيه برسيمٌ أخضر ؛ فركع معتمداً على يديه ورجليه ، ومدّ فمَه يتناول بشفتيه أطراف البرسيم ، كما تفعلُ سائرُ الحمير .

ثم أخذ طريقَه إلى الترعة ، فانحنىَ عليها بفمه ، وجعل يعُبُّ الماءَ عبًّا ، لا يبالى ما فيه من كدر ، ولا يهتمُّ بما يخالطُه من طين ؛ فصاح واحدٌ من الناس : انظروا كيف يقف بهمانُ الحكيمُ على يديه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورجليه كالبهيم ! أؤكدُ لكم أنه مريضٌ قد أصابه خَبَل ! . .

فقال آخر : بل إنه مجنونٌ ولا شك ، قد طار عقلُه وغاب صوابُه ! . .

فقال الثالث : يخيَّلُ إلىّ أنى لا أرى إنساناً . . .

فقال الرابع : استمعوا إليه ، إنه يَخِنٌ بأنفه كما تَخِنُ الحمير . .

قال الخامس وقد أخذته الشفقةُ به : يا ناس ، إن الرجل قد أصابه شيء ، فاذهبوا به إلى داره ليستريح . . .

ظل الناسُ يتجمعون حولَ بهمان ، ويتحدثون عن أحواله العجيبة ، وأفعاله الغريبة ؛ فالتفت إليهم منكراً ، وصاح بهم : ماذا تقولون . . . ؟ أتزعُمون أننى مجنون . . . ؟ ها ها . . . ! إننى اليوم أكثرُ ما كنتُ إدراكاً وعقلا . . . ! أم تزعمون أنى مريض . . . ؟ إننى اليوم أكمل ما كنت صحةً وأتمُّ عافية . . ! إنى لأستطيعُ أن أحملَ على ظهرى ثلاثةً منكم ، أو أربعة . . . !

ثم التفت إليهم وقال : أيكم يريدُ أن يركبَنى فأجُولَ به جَولةً بين الحقول ؟

فقال أطفالٌ ثلاثة : نحن نريدُ أن نركب .

فطأطأ ظهرَه كما يفعلُ الحمار : ولكنَّ الناس صاحوا بهم محذرين : احذروا أيها الأطفال . . . احذروا أن تركبوا بهمان . . . !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن الأطفالَ الثلاثة ، كانوا قد وثَبوا على ظهره ، فحملهم وانطلق يعدو بهم بين الحقول ، والأطفالُ يضحكون ويهللون ، حتى انتهى بهم إلى آخر المزارع ؛ فصعد تلاًّ عاليًا ، ثم انحدر إلى الجانب الآخر ، وأوشك أن يختفيَ عن العيون ؛ ولكن الناسَ ظلوا يتبعونه مسرعين ، يريدون أن يُمسكوه ، ليخلصوا الأطفال منه ، ويردوه إلى داره ليستريح ، وهم يظنون أنه بهمانُ الحكيم . . .

٥

أما بهمانُ الحكيمُ نفسُه ، الذى لبس هيئةَ الحمار ، فقد كان سيىءَ الحظ جدًّا ؛ لقد أخذ يونسُ الخضرىُّ يحاولُ أن يشدَّه إلى عربة الخضَر ، كما يفعل بحماره فى كل يوم ، وأخذ بهمانُ يحاولُ التخلصَ والتملصَ فلم يستطع ؛ فرفع صوتَه صائحًا يحتجُّ ويستغيثُ بالناس ، ولكن صياحَه لم يكن يخرجُ من بين شفتيه إلا نهيقًا كنهيق الحمير ؛ فلم يخطُرْ على بال أحد من الناس ، كما لم يخطرْ على بال يونسَ الخضرى نفسه ، أن هذا الحمارَ المشدودَ إلى العربة ، هو بهمانُ الحكيم ، الذى يعرفُه أهل القرية جميعًا . . .

وأخيراً استطاع يونسُ الخضرىُّ بعد جَهد ومشقة ، أن يشُدَّ بهمانَ إلى العربة ، ثم وضع عليها أقفاصَ الخضر ، وصناديقَ الفاكهة ؛ وسار فى طريقه الذى يسلكه كلَّ يوم إلى المدينة . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان بهمانُ لا يكُفُّ عن النهيق طولَ الطريق، يريدُ أن يستعطف الناس ليرحموه، ويخلصوه من وَرْطته؛ ولكن صياحَه المزعجَ المتواصل، كان يُثيرُ غضبَ الناس، ويَزيدُ سُخْطَهم عليه، حتى كان كلُّ من يسمعُه يقول: أفٍّ لهذا الحمار الملعون، الذى يصدّعُ الرءوسَ بصياحه المنكَر، وصوته القبيح!..

وكان يونسُ الخضرىُّ كلما سمع نهيقَه، نزل عليه ضرباً بعصاه، وهو يصيحُ به: حا حاه!!.. أسرعْ أيها الحمارُ الملعون، فقد أخَّرتنى كثيراً عن زبائنى؛ ولا أظنُّ أنهم يستطيعون أن ينتظروا أكثرَ من ذلك...

واستمرَّ يونسُ يسوقُ العربة، واستمرَّ بهمانُ ينهقُ لا يكادُ يسكتُ، حتى وصل إلى المدينة؛ فما كاد يمرُّ بأول بيت فيها، حتى خرجت إليه امرأةٌ تصيح: أين كنتَ يا يونس؟ لقد تأخرتَ اليوم على غير عادتك، حتى كاد يفوتُنا الغَداء، أسرعْ فزِنْ لى أقةً من البطاطس...

ثم تركت السلّة، ودخلت لتُحضرَ الثمن...

وقفت العربة، فكفَّ الحمارُ عن النهيق، ونزل يونسُ ليزنَ للمرأة ما طلبته؛ فما كاد يفتحُ جُوالَ البطاطس، حتى رأى منظراً عجَبًا؛ فقد أخذت البطاطسُ تتحركُ وتتدافَع، وتقفزُ إلى كَفّة الميزان، واحدةً بعد واحدة، كأن يداً تقذفُها.. حتى طبَّتْ الكَفَّة واجتمع فيها أقةٌ كاملةٌ بلا نقص ولا زيادة؛ ثم سكنت البطاطسُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكفَّت عن الحركة ، من غير أن يمُدَّ الخضرىُّ إليها يداً . . . .

دُهش يونسُ الخضرىُّ لهذا المنظر العجيب ، ووقف مبهوتًا ، لا يكادُ يصدقُ ما تراه عيناه .. ولكن الأمرَ لم يقفْ عند هذا الحد ؛ ففى غَمْضة عين ، صارت حباتُ البطاس المتجمعة فى الكفة ، مجموعةً لطيفةً من الأطفال الصغار ، لكل طفل منهم يدان ورجلان ، ووجهٌ ضاحكٌ جميل ، ولا يزيدُ حجمُ الطفل على حجم حبة من البطاطس ؛ وما هى إلا لمحة ، حتى استدار هؤلاء الأطفالُ فى حَلْقة منتظمة ، وأمسك بعضُهم بأيدى بعض ، وداروا يرقُصون رقصًا بديعًا ، كأنما يرقصون على نغمات موسيقى . . .

ازداد يونسُ دهشة ، وعجبِ أشدَّ العجب مما يرى ، ووقف ذاهلاً ينظرُ ولا يتحرك ، كأنه مسحور ؛ واستمرت البطاطسُ برهةً فى رقصِها البديع ، ثم كفَّت عن الرقص ، واصْطَفَّت جميعها صفًّا واحداً ، ومدت كلُّ واحدة يدها إلى صدرها ، فخلعت عنها قشرتَها ، كما يخلَعُ الطفلُ قميصَه ، ثم ألقت بها بعيداً ، فصارتْ أجسادُها جميعًا عارية ، ناصعةَ البياض ؛ ثم اتجهت كلها إلى حرف الكفة ، وأخذت تقفِزُ واحدةً وراء واحدةً إلى السلة ، كما يقفزُ السباحون إلى المـــاء . . .

أوشك يونسُ الخضرىُّ أن يُجَنَّ ويذهبَ عقله من فَرْط الدهشة ، وأخذ يقولُ لنفسه : ما هذا الذى أرى ؟ أهذه بطاطسُ أم أطفال ؟ أم هى جنياتٌ صغيرةٌ تتخايل لعينىَّ لتسلُبَنى عقلى ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان الحمارُ المسكينُ لا يزال ساكتًا ، قد طأطأ رأسَه إلى الأرض فى حزن وذلة ، وكانت البطاطسُ لا تزال تتحركُ حركاتها العجيبة ، وتلعبُ ألاعيبَها المضحكة . وفجأة رفع الحمارُ رأسَه ، وعاد إلى نهيقه .. حينذاك ، كفَّت البطاطسُ عن الحركة ، واستقرَّت ساكنةً فى السَّلة .

وخرجت المرأةُ من الدار ، فنظرت إلى الحمار وهى تقول : ماذا أصاب حمارَك اليومَ يا يونس ؟ ثم نظرت إلى البطاس فى السلة ، فقالت : هذا جميل ؛ لقد قشَّرتَها ونظفتَها بسرعة . . . ما أبدعَ هذه الطريقة إنك توفرُ على زبائنِك الجُهدَ والوقت !

ولم يكن يونس قد أفاق من دهشته ، فلما سمع كلام المرأة ، نظر إلى السلة ، فإذا البطاطسُ فيها بيضاءُ ناصعة ، نظيفةٌ مقشرة ، ليس لها أيد ولا أرجلٌ ولا رءوس ؛ فقال لنفسه همسًا : يا لَلعَجَب ! ألم تكنْ هذه البطاطسُ منذ لحظة أطفالا صغاراً ، تقفزُ وتنط ، وترقُص وتلعب ؟ أم أننى كنت أتخيلُ وأحلُم ؟.. ولكن ، مَن قشرها ؟ ومن نظفها ؟ إننى أكادُ أجَن .. لا بدَّ أن ضربةَ شمس قد أصابتنى ، فجعلتنى مختلطَ العقل ، لا أكادُ أدركُ ولا أعى

وكان الحمارُ لا يزالُ ينهق ، فضاق صدرُ الخضرى وصاح به غاضبًا : أفٍّ لهذا الصوت المنكَر ! إنه هو الذى صدع رأسى ، وطيَّر عقلى.. ثم انهال عليه بعصاه ، حتى كفَّ عن النهيق ؛ فلم يكدْ ينقطعُ نهيقه ، حتى عادت حباتُ البطاطس تقفزُ وتثِب ، وترقُص وتلعب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم عاد الحمار ينهق ، فكفت البطاطسُ عن الحركة، واستقرت ساكنةً كما كانت . . .

ورأى يونس ذلك فكاد عقلُه يطيرُ من رأسه ؛ واقتربت منه المرأة قائلة : ما لك اليومَ غاضباً يا يونس ؟

ثم مدت يدها إلى السلة ، فرفعتها عن الأرض وهى تقول : أشكرُك كثيراً ، فقد وفَّرت علىَّ الوقتَ بتقشيرك البطاطس .

فقال يونس متردداً وهو ينظرُ إلى البطاطس فى السلة : هل نظرت إليها جيداً ؟

قالت المرأة : نعم نعم ، أشهدُ أنك بارع . وإن هذه الطريقةَ الجديدةَ هى خيرُ إعلانٍ عن بضاعتك !

ثم حملت السلةَ بما فيها ، ودفعت الثمنَ إليه وهمَّت أن تنصرف .

حينذاك وثب يونسُ إلى العربة فركب ؛ وكان الحمارُ لا يزالُ ينهق ، فأمسك يونسُ اللجامَ وشده إليه ، ليستأنفَ المسير ، فصاحت المرأةُ تحييه : مع السلامة يا يونس ! . . .

فرد عليها قائلا : الله يسلمك . . . هل البطاطسُ جيدة ؟ أرى أن تُمسكى واحدةً منها ، لتستَيْقنى أنها على ما يرام .

قالت : ولم هذا ؟

ثم مدت يدها إلى السلة فأخذت منها واحدة ، فقلَّبتها فى يدها ، ثم قالت : إنها بطاطسُ جيدةٌ جدًّا

قال يونس : طيب !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم همس قائلا لنفسه : إذن ، فلا بدَّ أنني مريض ، متعبُ العقل . . حا يا حماري حاه . . ! وكفى نهيقًا فقد كاد رأسي ينشقّ ! .

٦

أخذ الحمارُ المسكينُ يسيرُ خلالَ المدينة وهو مربوطٌ بعربة الخضرى ، لا يظنُّ أحدٌ ممن يراه أنه بهمانُ الحكيم ، قد مَسَخه سلمُ الساحرة حماراً . . كان ينهق طولَ الطريق ، يريدُ أن يخبرَ الناسَ أنه بهمان ؛ ولكن الناسَ لا يفهمون نهيقَ الحمير ! . . .

ومرت العربةُ بدكان اللبان ، فما كاد يسمعُ نهيقَ الحمار ، حتى وقف بالباب يقول : وأخيراً حضرتَ يا يونس ؛ لقد خُيِّل إليَّ أنك لن تأتيَ اليوم ، ولن تُحضرَ ليَ البطيخةَ التي أوصيتُك بها . . . ولكنْ ما بالُ حمارك لا يكفُّ عن النهيق ؟ . .

قال يونس : لا أدري والله ماذا أصابه اليوم !

ثم وقف العربةَ فكف الحمارُ عن النهيق ، ونزل يونس ، فمد يده إلى البطيخة ليحملَها إلى اللبان ؛ فما كادت تلمسها أصابعُه ، حتى ارتفعت في الجو طائرةً مثل البالون ؛ فوقف يونسُ مدهوشًا ينظرُ إليها وهي طائرة ؛ ثم مد يده يحاولُ أن يُمسكَها ، فلم يَطُلْها ، واستمرت صاعدة ؛ ثم ظهر لها عينان براقتان ، وانشقَّ لها فمٌ عريض ، وبرز

فيه صفَّان من الأسنان اللامعة ، فبدا منظرُها فى الجو كوجه القمر الضاحك ؛ فذُهل يونس ، وأمسك رأسَه بيديه وهو يقول : يالِى مما أرَى فى هذا اليوم من العجائب ! لقد شبعت من هذه الألاعيب ؛ إن الحمَّى تكاد تَفلق رأسى !

وفجأةً نهقَ الحمار : « هاق ! هاق ! هاق ! هاق ! » فما كاد يرتفعُ نهيقُه ، حتى عادت البطيخةُ إلى شكلها الأول ، فلا عينين ، ولا شفتين ، ولا أسنان ؛ وهَوتْ من علُوّها فى سرعة إلى سلة اللبان فانحطَّت فيها . فصاح اللبانُ غاضبًا : أنا لم أطلبْ إليك أن تقذفَ بها هكذا إلى السلة ؛ فلو أنها وقعت على الأرض لانكسرت وتَلفت !

قال يونس : انظر ، هل أصابها شىء ؟

قال اللبان : الحمدُ لله ، لقد جاءت سليمة ! . . .

٧

صعد يونسُ إلى عربته مسرعًا ، وصاح وهو مغتاظ : حا حاه أيها الحمارُ الملعون ! ابتعدْ بى عن هذا المكان سريعًا .

ثم شد اللجامَ بعُنف ، وقال يحدث نفسه : أصحيحٌ ما رأيت ؟ أكانت هذه بطيخةً تطيرُ فى الفضاء ، أم كانت بالونا ، أم أن بصرى يخدَعنى ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم صاح بالحمار : حا حاه ، أيها الحمارُ الملعون ؛ إن نهيقَك المستمرَّ قد أشرف بى على الجنون !

فصاح الحمارُ متألمًا : آه يا يونس ؛ أما تزالُ تحسبنى حماراً ؟ متى تعرفُ أننى أنا بهمان الحكيم ؟

ولكن الكلمات خرجت — كالعادة — من فمه نهيقًا ؛ فاشتد غضبُ يونسَ وقال : أفّ ! لقد ضاق صدرى بك اليومَ أيها الحيوانُ العنيد ! . . انطلقْ بى من هذا المكان سريعًا ؛ فلم تبقَ لى طاقةٌ على الاحتمال .

فعاد الحمار يقول : أ أنت الذى تشكو وتتألم ؟ فماذا أفعلُ أنا وأنت تعاملُنى معاملةَ الحمير ؟ آه يا صاحبى لو كنت تعرفُ الحقيقة ! أنا لست حمارَك يا يونس . . . نعم إنك ترانى أشبهه ، ولكن ما ذنبى وما حيلتى فيما جرى ؟

ضاق صدر يونسَ بهذا النهيق المستمر ، وصاح فى غضب : كفَى كفى أيها الحمار ؛ إننى لا أكادُ أسمعُ صوتَ الزبائن وهم ينادوننى !

وكانت العربةُ قد وصلت إلى بيتِ زَبون آخر ؛ فوقفت ، وكفَّ الحمارُ عن النهيق ، وأطلت من النافذة سيدةٌ تقول : ما هذا التأخرُ يا يونس ؟ لقد أزِف موعدُ الغَداء ولم نطبُخْ .

ثم أنزلت له سَلةً من النافذة ، وقالت : أسرعْ فزِنْ لى أقةً من الباسلاَّ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نزل يونسُ عن العربة ، وكشف الغطاء عن قفص الباسلاً ، ليزنَ للسيدة ما طلبت ؛ فما كاد ينكشفُ الغطاءُ عن القفص ، حتى أخذت قرون الباسلا تتطايرُ إلى الميزان كما يتطايرُ الجراد ، وما زالت تتطايرُ وتقعُ فى كفة الميزان ، حتى امتلأت الكفةُ واتَّزنَتْ بها أقةٌ كاملة . ثم سمع يونسُ طَقْطَقَةً متوالية : « طقْ طقْ ، طقْ طقْ » . . كصوت المطر حين يسقُطُ على الأرض ، وكان هذا الصوتُ هو صوتُ قرون الباسلا تتفتَّحُ وتتناثَرُ حباتها ، فيسقُطُ بعضُها على الأرض ، ويسقطُ بعضُها على العربة ، ويصيبُ بعضُها وجهَ يونس . . فوقف الرجلُ برهةً مبهوتًا ، ثم أخذ يحاولُ بكلتا يديه أن يجمعَ الحبات المتناثرة ، وهى تروُغُ منه وتزوغ ، وتُفلتُ من بين أصابعه ، وتتبعثرُ عن يمينه وشماله ؛ فصاح فى غيظ : كفى كفى أيتها الجنيَّاتُ الصغيرة !

وناديته السيدةُ من النافذة : ألم تفرُغْ بعدُ يا يونسُ من وزن أقة الباسلا ؟ كم من الزمن تأخذُ فى وزن أقة !

وكان يونسُ منهمكًا فى جمع حبات الباسلا ، لا يكادُ يُمسكُ حبةً حتى تفرَّ منه حبة .

وهنا عاد الحمارُ ينهق ، فكفَّت الباسلاً عن القفز والحركة ، واستقرت جميعها فى السلة .

وعادت السيدةُ تُطلُّ من النافذة وهى تقول : هل فرغت يا يونس ؟ ثم جذبت السلةَ ونظرت فيها وقالت : وقشَّرتها أيضًا ؟ ما أسرعَك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأبرعَك ! يا لها من طريقة بديعة لإرضاء الزبائن !

فقال يونسُ مرتبكًا ! شكراً ؛ أرجو أن تكونَ قد أعجبتك .

فمدت يدها إلى السلة ، وأخذت فى يدها حَفْنَةً من الباسلا ، ونظرت إليها نظرةً فاحصة ، ثم قالت : إنها باسلا جيدة ، لم ترَ عيناى أحسنَ منها .

٨

عاد يونسُ إلى العربة فركبها ، وشد لجامَ الحمار بغيظ ، وانطلق بالعربة مسرعًا ، لا يتمهَّلُ ولا يتوقَّف ، ولا يستمعُ إلى نداء الزبائن الذين يصيحون به فى طريقه ، كأنما يريدُ أن يفرَّ من عدو يطارده ؛ فقد كان كلُّ همه أن يعودَ إلى داره ، ليستريحَ من الحمَّى التى أصابته فتركته كالمجنون .

وكان بهمانُ ينهق على طول الطريق ، حتى صار صوتُه من كثرة النهيق خَشِنًا أجشَّ ، وجفَّ حَلْقُه من التعب والعطش ؛ وكان يومًا حارًّا شديدَ القَيْظ ، وقد أرسلت الشمسُ المحرقةُ أشعتها تشوى الوجوهَ والجلود ، وركَدت الريحُ فلم تكن هناك نَسْمةٌ واحدةٌ تهبُّ ، فتلطفُ من حر ذلك اليوم الشديد القائظ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستمرت العربةُ تمشى بلا توقف، حتى قطعت مِيلَيْن كاملين، ثم انتهت إلى شجرة قائمة على الطريق، تُلقى ظلَّها كاسيًا على الأرض؛ فوقف يونس، ونزل عن العربة، وجلس ليستريحَ قليلا فى ظل هذه الشجرة؛ فأسند ظهرَه إلى جذْعها، وترك الحمارَ معلَّقًا بالعربة؛ ثم أخرج من جيبه منديلا كبيراً أحمر، وجفف به عَرَقَه؛ ثم تناول كوزاً من الصفيح، فملأه من ماء القناة الجارية تحت الشجرة، فشرب حتى ارتوى؛ ثم نظر إلى الحمار قائلاً: أعتقدُ يا حمارى أنك عطشانُ كذلك، ولو كنتَ حماراً لطيفًا لحَلَلْتُ رباطك، وتركتك تشربُ من ماء القناة وأنت حر؛ ولكنك حيوانٌ خبيث، هرَّاب، ولو حللتُ رباطَك لأسرعتَ إلى الفرار؛ فخيرٌ لك أن تبقى مربوطًا إلى العربة، جزاء خيانتك وسوء طبعك! . . .

نَهَق الحمار محتجًّا يقول: أنا لست حماراً، ولا هرَّابًا، ولا خبيثًا، ولا سيئَ الطبع؛ لقد قلتُ لك ذلك ألفَ مرة، ولكنك لا تفهمُنى ولا تُصغى إلىَّ؛ فاتركْنى وأطلِقْ سراحى . . . إننى عطشان، وأريد أن أطفئَ ظمئى . . .

كان هذا معنى نهيقه، ولكن من ذا يفهمُ نهيق الحمير؟ من أجل ذلك صاح يونس: ألا تكفُّ عن هذا النهيق أيها الخبيث؟ اسكُتْ فقد صدعت رأسى، وسآتيك بالماء لتشرب.

فصاح الحمار: هاق! هاق! إنك قاسى القلب يا يونس؛ إنك تعاملُنى أسوأ معاملة! . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصاح به يونس : إلى متى هذا النهيق ؟ إذا لم تكفَّ عن النهيق فلن آتيك بالماء !

ثم أخذ يبحث فى العربة حتى وجد الدَّلْو ، فحمله إلى القناة ، وملأه بالماء ؛ وكان بهمان لا يزال ينهق ، فلما عاد يونسُ بالماء انقطع نهيقه ، ومال بفمه على الدلو يَعُبُّ الماءَ عبًّا ، حتى لم يُبْقِ فى الدلو قطرةَ ماء . . .

٩

وبعد أن شرب الحمارُ قال يونسُ لنفسه : الآنَ يحسُنُ أن أستريحَ قليلا . ثم صعد فوق العربة ، وهيَّأ لنفسه مكانًا بين أقفاص الخضر وصناديق الفاكهة ، وتمدد ليستريح ، وأغمض عينيه نصفَ إغماض ، وجعل ينظرُ إلى بضاعته وهو بين النائم واليقظان ؛ وكان صندوقُ التفاح أمامه ، فبدا لعينيه فى صورة بيت صغير ، له أبوابٌ ونوافذُ وشرُفات ؛ فسأل نفسَه : عجبًا ! أهذا صندوقٌ التفاح الذي وضعتُه على العربة فى الصباح ؟ أم هو بيتٌ حقيقى كما أراه الآن ؟ أم أننى أحلُم ؟ لكننى لست نائمًا ، فما هذا الذى أرى ؟

ومدَّ نظره من خلال نافذة فى ذلك الصندوق ، فلم ير فى داخله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تفاحاً، بل رأى فتَيات صغيرات ، وَرْديّات الخدود ، حمروات الشفاه ، رشيقات الحركة ، قد تماسكْنَ بأيديهن ، واستدرْنَ فى حلْقة منتظمة ، وهنّ يرقُصْنَ رقصاً بديعاً ، ويغنّين غناءً ساحراً ؛ فدهش يونسُ وقال : ما أكثرَ ما أرى فى هذا اليوم من العجائب! . . .

ثم استدار إلى الناحية الأخرى ، حيث كان الكرنبُ مرصوصاً بعضُه إلى بعض ، فرأى كل كرنبة منه قد تحولت إلى قزَم ضئيل الجسم ، صغير الحجم ، لا يزيدُ طولُه على شبر واحد ؛ وقد لبس على رأسه عمامةً ضخْمة ، خضراءَ اللون ، تُغطى رأسَه وأذُنيه ؛ فكان منظرُ هؤلاء الأقزام ، وهم فى هيئة الشيوخ الصغار ، منظراً مضحكاً جداً ؛ ثم لم يلبثْ هؤلاء الشيوخُ الصغارُ أن تقدّموا جميعاً فى صف واحد ، فوثَبوا إلى نوافذ بيت التفاح ، يتطلعون إلى أولئك الفتيات الصغيرات ، وهن يرقُصن ويغنين . . فهبّ يونسُ من مرقَده مذعوراً وهو يقول : رباه ، ماذا أرى ؟ أهذا كرنب ؟ أم أقزام ؟ أم أننى مسحور ؟ أم أن الحمى قد ذهبت بعقلى ؟

فى تلك اللحظة ، برَز صفان من قرون الباسلاء ، فى كل صف خمسةَ عشرَ قرناً ، ثم وقفا متقابلين كما يقفُ فريقان من لاعبى الكرة ، يتأهبّان للّعب فى ملعب كبير ؛ وما هى إلا لحظاتٌ حتى ابتدأ اللعب ، واندفع الفريقان بعضُهما إلى بعض ، يتقاذفون بأرجلهم بصلةً صغيرة ، كما يتقاذفُ اللاعبون كرةَ القدم . حينئذ أطلّت الفتياتُ الصغيراتُ من نوافذ بيت التفاح ، يتفرّجْن على هذه المباراة العجيبة ؛ ووقف الشيوخُ

كذلك يتفرجون ؛ وحَمِيَ اللعبُ بين الفريقين ، واشتدت حماسةُ اللاعبين ، وجعلت البصلَةُ الصغيرةُ تتدافعُ بين رءوسهم وأرجلهم ، والمتفرجون يُصفقون ويُهللون ، كلما انتهت جوْلةٌ وانتصر فريقٌ على فريق .

أما يونسُ الخضريّ ، فقد وقف ذاهلا مبهوتًا ، قد انفتح فمُه ، وبرّقت عيناه ، وكفّ عن التفكير والحركة ، كأنه تمثالٌ قائم لا يُدركُ ولا يُحس . . .

وعلى حين غفلة ، ارتفع نهيقُ الحمار ؛ فإذا البصلةُ تتدحرجُ إلى مكانها فى الجُوال ، وإذا الباسلا تعودُ إلى مكانها فى القفص ، وإذا الشيوخُ الأقزامُ ترجعُ كرنبات كما كانت ، وإذا صندوقُ التفاح هو صندوقُ التفاح ، وكأن العربةَ لم تكنْ منذ لحظة مَسرحًا لكل هذه الألاعيب وتلك الأعاجيب ! . .

وأفاق يونسُ من ذهوله ، فأدار نظرَه فيما حولَه ، كأنما هو صاح لوقته من نوم ثقيل ، قد ملأتْه الرُّؤَى المفزعةُ والأحلامُ المزعجة ؛ فتنفس نفَسًا عميقًا ، ثم قال بضعف وانكسار : آه يا راسى . . . ! هذا شىءٌ لا يطاق . . . يجبُ أن أعودَ سريعًا إلى دارى . . .

وكان الحمارُ لا يزال ينهق ، فاندفع يونسُ إليه مغتاظًا ، يَعضُّ أذنيه بغلٍّ شديد وهو يقول : أيها المشئوم ، أنت سببُ كل هـذه المصائب ! . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم انهال عليه ضرباً ولكماً ونخساً ، وهو يسبُّ أفحشَ السباب ، ويشتِمُ أقبحَ الشتائم .

ولكن بهمانَ المسكينَ لم يُطقْ كلَّ هذه الآلام ، ولم يحتملْ قبحَ هذه الشتائم ؛ فغضب وزمْجَر ، ثم رفَس وقمَّص ، وارتفع بالعربة ثم انخفض ، فتدحرجت الخضرُ على الأرض ؛ فصاح به يونس : قف ! قف أيها الحمارُ الملعون ! لقد زدت عن الحد ، وبلغت ما لا يحتملُه أحد ! . . .

ثم مال على الأرض يلُمُّ ما تبعثر من بضاعته ، وهو يسبُّ ويلعن ؛ فانتهزها الحمار فرصة ، وانطلق يعدو بأسرعِ ما يستطيع ، لا يقفُ في سبيله شيء ، ولا يعترضُ طريقَه أحد ؛ والعربةُ من ورائه ترتفع وتنخفض ، وتميلُ وتعتدل ؛ ويونس يصيحُ به : قف ! قف أيها الحمارُ اللئيم ! . . .

ولكن الحمارَ كان أسرعَ من الريح ، فما زال يعدو شارداً بين الزروع والأشجار ، حتى اختفى وراءَ ربوة عالية ، فتحيَّر يونسُ المسكين ، لا يدرى أين ذهب الحمار ، ولا يعرفُ ماذا أصاب العربة . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٠

وكان يونسُ المسكين قد بلغ من التعب نهايتَه ، ولكنه ظل يمشى مقتفياً أثرَ الحمار والعربة ، حتى وصل إلى تلك الربوة . . .

وكانت الشمسُ قد مالت للمغيب ؛ ولم يجدْ يونسُ أثراً للحمار ؛ فدخل القريةَ متعبًا ، حزينًا ؛ وهناك وجد زوجةَ الحكيم بهمان ، واقفةً فى مدخل القرية ، تتطلعُ فى كل ناحية ، باحثةً عن زوجها الذى فقدتْه من أول النهار ، ولم تدر أين ذهب .

فما كادت ترى يونسَ الخضرىَّ قادمًا حتى سألته فى لهفة : ألم تر زوجى الحكيمَ بهمانَ يا يونس ؟

فبادرها يونسُ قائلا : وأنت ألم ترَىْ حمارى وعربتى ؟

فصاحت المرأة فى جزَع : بالله لا تذكّرْنى بسيرة الحمير ! . . إن حماراً عنيداً قد هجم على بيتى منذ ساعة ، يريد أن يقتحمَه ، وكلما حاولت أن أدفعه ، دفع الباب برأسه وهمّ بالدخول . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فسألها يونس : هل كان يجرّ وراءه عربة ؟

قالت : نعم ، ولكنها عربةٌ مهشمة ، قد ضاعت إحدى عَجلتيها ، ولم يبقَ فيها إلا عجلةٌ واحدة !

قال يونسُ فى اهتمام : وأين أجد ذلك الحمارَ الآنَ يا سيدتى ؟

قالت : إنه لا يزالُ هناك ، يحاولُ أن يقتحمَ البيت ؛ وقد أعيتنى الحيلُ فى دفعه ، فتركته وجئت إلى هنا لأبحثَ عن زوجى !

فقال يونس : تبًّا لهذا الحمار اللئيم ! . . .

واندفع نحو بيت الحكيم بهمان ، باحثًا عن حماره ، واندفعت وراءه زوجةُ الحكيم بهمان ؛ فلما وصلا إلى البيت ، رأى يونسُ حطامَ العربة فى الحديقة ، والحمارُ واقفٌ عند شباك حجرة الاستقبال ، قد أدخل رأسه بين قضبان الشباك ، يحاول أن يدخلَ منه إلى الدار فلا يستطيع ؛ فما كاد الحمارُ يرى يونس ، حتى نظر إليه خائفًا وهمَّ بالفرار ؛ فخشى يونسُ أن يُفلتَ الحمارُ منه مرةً أخرى ، فلا يستطيعُ القبض عليه وقد خيَّم الظلام ؛ فقال لزوجة الحكيم بهمان : كأن الحمارَ يريدُ أن يدخلَ الحجرة ؛ فهل تسمحين بأن نُدخلَه ، ثم نحوشَه فيها فلا يستطيعُ الخروج ، ويسهلُ القبضُ عليه !

قالت المرأة : ولكنى أخاف أن يحطمَ الأثاث !

قال يونس : لا تخافى ، فسأعاجلَه بالقبض عليه حين يدخل . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتحت المرأة الباب ، فاندفع الحمارُ إلى الحجرة ، واتجه نحو الكرسى الذى تعوَّد الحكيمُ بهمانُ أن يجلسَ فوقه ، ثم جلس . . . فصاحت المرأة غاضبة : يالَلمصيبة ! ماذا يقولُ زوجى بهمان ، إذا حضر الآن ، ورأى . . . . . .

وكفَّت المرأة فجأة عن الحديث ، حين سمعت صوتًا آتيًا من بعيد ، يشبه صوتَ الحكيم بهمان ؛ وأنصت يونسُ يتسمَّعُ معها . . .

فى ذلك الوقت ، كان بهمانُ المزيَّف — وهو حمارُ يونسَ الخضرى — يقتربُ من البيت ، وقد أمسك بذراعيه رجلان من أهل القرية ، يُسْندانه من جانبيه ، وهما يقولان له فى عطف : يجب أن تلزمَ دارَك يا بهمان ، حتى تستريحَ أعصابُك وتهدأ نفسُك . . .

ولم يلبَثْ الثلاثةُ أن وصلوا إلى الدار ؛ فاندفعت زوجةُ الحكيم بهمانَ نحوَه وهى تقولُ فى عطف : أين كنتَ يا زوجى العزيزَ طول النهار ؟ لقد أقلقنى غيابُك طويلا . . .

ثم أمسكت بذراعه وهى مسترسلةٌ فى حديثها : تعال يا بهمان فانظر ، إن فى دارنا حماراً ، يجلسُ فى حجرة الاستقبال ، على الكرسىَ الذى تجلسُ عليه أنت . . . وقد أبَى إلا أن يدخلَ الحجرة ، ويجلسَ على ذلك الكرسى . . .

صاح بهمان المزيف : حمار ؟ . . .

ثم اندفع نحوَ النافذة ينظر ، فرأى حماراً يجلسُ على ذلك الكرسى . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن خلَل قضبان النافذة ، التقت نظراتُ الحمار بنظرات بهمان ..

وفى تلك اللحظة ، حدث أمرٌ عجيبٌ لم يكن يخطُرُ لأحد على بال ؛ فقد انقلب الحمارُ الجالسُ على الكرسى إنسانًا ، هو بهمانُ الحكيمُ نفسُه ؛ وانقلب الإنسان الذى كان واقفًا بين الناس وراءَ النافذة ، حماراً ، هو حمارُ يونسَ الخضرى . . .

حدث ذلك فى سرعة عجيبة ، حتى لم يدركْ أحد من الواقفين كيف حدث ، فظلوا برهةً صامتين من ذَهْلة المفاجأة ، ثم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقةَ كاملة ، حين تذكروا أنهم فى ذلك اليوم المعيَّن من أيام الصيف . . .

وإذنْ فقد كان كلُّ ذلك من أثر « سلَّم الساحرة » . . .

١١

لم ينَمْ بهمانُ الحكيمُ فى تلك الليلة ، بسبب ما رآه فى ذلك اليوم من أهوال جرَّها عليه سلمُ الساحرة ؛ فلم يكد يشرقُ الصبح ، حتى حمل فأسَه واتجه إلى ذلك الزقاق ، فانقضَّ بفأسه على السلم تحطيمًا وهدمًا ، فلم يتركْ منه خشبةً تُمسِكُ خشبة ؛ ثم جمع حُطامَه فأشعل فيه النار . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان بهمانُ الحكيم ، وزوجتُه ، ويونسُ الخضرى ، وأهلُ القرية جميعًا ، واقفين فى شبه حلْقة ، يشهدون اندلاعَ النار ، وتطايُرَ الشرار ، وتصاعدَ الدخان ؛ فلم ينصرفوا حتى عاد ذلك السلمُ رماداً ، وذهب من قرية سرحان ، آخرُ أثر من آثار الساحرة العجوز .

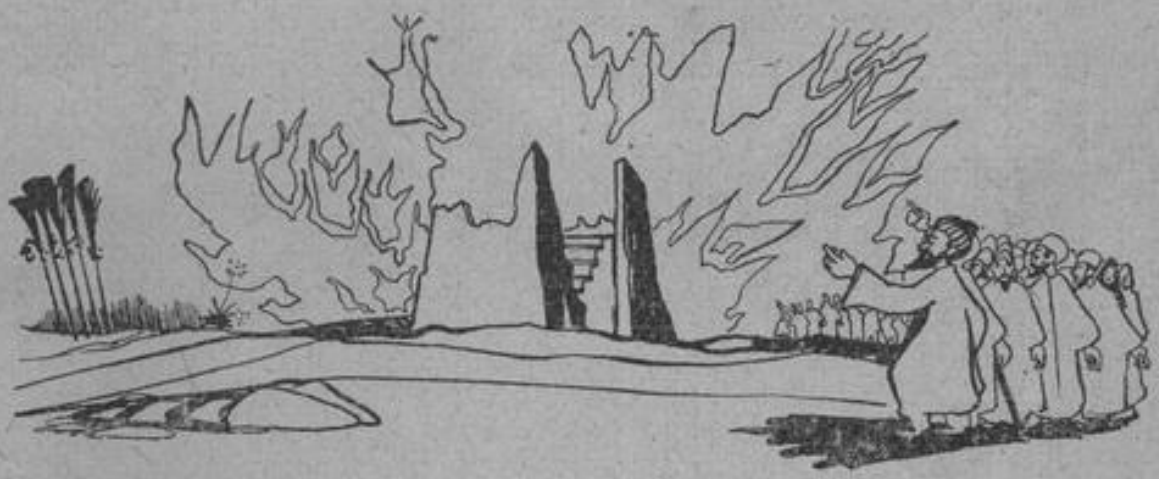

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منظار الأسرار

١

كان « رفيقٌ » صبيًّا حين هاجر أبواه من « لُبنانَ » إلى أمريكا ، ليُقيما هنالك كما يُقيم كثيرٌ من أهل لبنانَ وسورية ، ليشتغلوا بالتجارة ، أو بالصناعة ، أو بالزراعة ، أو بإدارة الفنادق والمطاعم ، أو غيرها من الأعمال الكثيرة التى يُحسنونها ويكسبون منها ثَرْواتٍ طائلة . . .

وكان فرحُ رفيق بهذه الرحلة عظيماً ، فقد كان يتمنى كلما شاهد البواخر العظيمةَ فى ميناء « بيروت » ، أن تُتاحَ له الفرصةُ لرحلة طويلة فى البحر ، يتمتعُ فيها بركوب السفينة ، تمخُرُ به عُبابَ الماء من شاطئٍ إلى شاطئٍ ، وتُطلعه على عجائب البحر والبر ، فى الدنيا القديمة والدنيا الجديدة . . .

وقد كان له عمٌ يقيمُ فى أمريكا منذ سنينَ بعيدة ، وقد آتاه الله ثروةً عظيمة ، بفضل نشاطه فى العمل وأمانته فى المعاملة ، فصار من كبار الأغنياء ، وذاع له صيتٌ فى أمريكا وفى لبنان ، حتى تمنى كلُّ فرد من أسرته أن تتاحَ له فرصة ، ليهاجرَ مثلَه إلى أمريكا ، كى يغتنىَ ويكثُرَ مالُه ويَذيعَ صيتُه . . .

وكان رفيقٌ يسمعُ بعضَ أنباء عمه ؛ فيمتلئُ قلبُه حماسةً وفخراً ، ويتمنى أن يرَى تلك البلادَ العظيمةَ التى هاجر إليها عمه ، فاغتنى واشتَهر ، وصار ذا جاه ومال . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢

وأقلعت الباخرةُ من ميناء بيروت ، برفيق وأبَوَيه ، وسارت بهم تمخُرُ عُبابَ الماء ؛ فمرت بميناء « جنوة » وميناء « نابولى » بإيطاليا ، ثم استأنفت سيرَها إلى ميناء « مرسيليا » بفرنسا ، ثم اتجهت غرباً إلى مَضيق جبل طارق ، فنفَذت منه إلى المحيط الأطلسىّ ، ثم اتخذت طريقَها إلى ميناء « نيويورك » ، حيث هبط رفيقٌ وأبواه فوق أرض أمريكا . . .

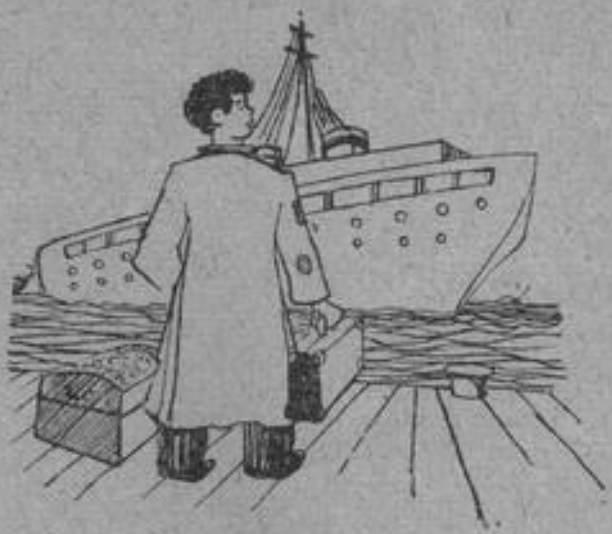

وعاش رفيق فى أمريكا ، سعيداً بحياته الجديدة ، ولم يلبَثْ أن التحق بمدرسة أمريكية ، ليتعلمَ فيها كما يتعلمُ الأطفالُ الأمريكيون ، وأخذ أبوه يبحثُ عن العمل الذى هاجر من أجله إلى تلك البلاد ، ليحصُلَ على الغنى والجاه والسعادة . . .

وقرأ رفيقٌ فى مدرسته ، كثيراً من قصص المغامرين ، الذين يبحثون عن الذهب فى التلال الصخرية ، أو فى مجارى الماء بالمناطق البعيدة ؛ فتمنى أن يرحلَ أبوه إلى تلك المناطق ، ليبحثَ — مثلَ أولئك المغامرين —

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن الذهب فى التراب ؛ ولكن أباه آثرَ أن يشتغلَ بالتجارة ، لأنه خبيرٌ بأساليبها ووسائلها ، ولم يكن له قدرةٌ على احتمال المتاعب الشاقة ، التى يحتملُها الباحثون عن الذهب فى تلك المناطق النائية .

ومضت الأيام ، ورفيقٌ يعيشُ بينَ أبَوَيه فى أمريكا ، سعيداً بحياته وبعطف أبويه ، وبالحياة الجديدة التى لم تكنْ أحلامُه ترتقى إلى تخيلها فى الماضى ؛ ولكنه مع ذلك لم يقطع الأمل فى الرحيل إلى أرض الذهب فى يوم من الأيام . . . . . .

وذات يوم كان رفيقٌ يزورُ مع أمه معرِضاً من المعارض الصناعية الكبيرة ، فوقفا عند ركن من أركان المعرض ، قد عُرضت فيه أنواعٌ شتَّى من المناظير ، منها مناظيرُ القراءة ، ومناظيرُ الشمس ، والمناظيرُ المقرِّبة ، والمناظيرُ المكبِّرة والمناظيرُ التى يستخدمها الملاَّحون ، والتى يستخدمُها الفلَكيون.. إلى أنواع أخرى كثيرة ؛ فقال لأمه : إننى أريدُ يا أمى أن أشترىَ منظاراً . . .

قالت أمه : وما حاجتُك يا بُنىَّ إلى المنظار ، وأنت قويُّ النظر !

وكان رفيقٌ قويَّ النظر حقًّا ، ولكنه كان يرى أن المنظارَ على العينين يُكسبُ صاحبَه وجاهةً وجمالاً ، فقال لأمه ، ليقنعَها بحاجته إلى منظار : إننى أريدُه للقراءة يا أمى !

أطاعت الأمُّ رغبةَ ولدها ، وقصدت به إلى الطبيب ليختبرَ قوةَ إبصاره ، ويصفَ له المنظارَ الذى يلائمه ؛ وعلم رفيقٌ أن الطبيبَ حين يعرفُ قوةَ إبصاره ، لن يسمحَ له باتخاذ منظار ، فأراد أن يمضىَ فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

احتياله إلى النهاية ، فلما وَقَفه الطبيب أمامَ علامات الاختبار ليسأله عما يرى منها ، أخذ يغلَطُ فى الجواب عامداً ، ليُوهمَ الطبيبَ أنه لا يرى ، واستمر يغلطُ فى قراءة العلامات ، من السطر الأخير ، إلى السطر الأول ؛ فدهُش الطبيبُ دهشةً كبيرة ، وأخذ ينظرُ فى عينيه بمنظاره الخاص ، ثم قال : إننى فى عجب من أمرك أيها الصبى ؛ فإن عينيك سليمتان كلَّ السلامة ، ولكنك لا تكادُ ترى بهما علامةً واحدةً من علامات الاختبار !

وعاد يختبرُه فى قراءة العلامات مرةً أخرى ، ولكنه استمرَّ يغلطُ فى الجواب ، فقال الطبيب : هذه حالةٌ لم يُصادفْنى مثلُها فى حياتى ؛ فسأُعطيك منظاراً لم يوضَعْ مثلُه على عينىْ غلام فى مثل سنك .

فلما وضع رفيقٌ على عينيه ذلك المنظار ، صاح دهشًا : ما هذا ؟ إننى أرى أشياءَ عجيبة !

وكانت الأشياءُ التى رآها رفيقٌ بهذا المنظار ، عجيبةً حقًّا ، فقد استطاع أن يقرأ الرسائلَ المطويَّةَ فى جيب الطبيب ، ويعرفَ عددَ أوراق النَّقْد فى حافظته ؛ بل لقد استطاع أن يرى بعضَ التحَف الصغيرة التى كانت فى دُرج المكتب المقفَل . . . .

ولم يصدقْ الطبيبُ ما أخبره به رفيقٌ من ذلك ، وظن أن فى الأمر نوعًا من المصادفة ؛ ولكنه لم يلبَثْ أن صدَّقه ، حين أخبره أن فى قميصه قَطْعًا من الخلْف ، تُخفيه السترةُ القاتمةُ التى يلبَسُها ؛ ولم يكن الطبيبُ يعرفُ أن قميصَه مقطوعٌ قبل أن يخبرَه رفيقٌ بذلك ! . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت دهشةُ الطبيب عظيمةً بذلك ، وزاد دهشةً وعجبًا حين خلع المنظارَ عن عينى الصبيِّ ، ثم وضعه على عينىْ فتىً آخر كان أقوى بصراً وأصحَّ عينين من رفيق ، ولكن ذلك الفتى لم يستطعْ أن يرى بالمنظار أكثرَ مما يرى الناسُ بعيونهم ؛ فأيقن الطبيبُ أنه أمام ظاهرة عجيبة ، لا يستطيعُ أن يعرفَ لها سببًا ولا علة ! . . .

٣

عاد رفيقٌ مع أمه إلى الدار ، وهو يحملُ فى جيبه ذلك المنظارَ العجيب ، ولم يرضَ أن يضعَه على عينيه فى أثناء الطريق ؛ لأنه كان يُريه أشياءَ كثيرة ، لا يريدُ أن يشغلَه النظرُ إليها عن الالتفات إلى الطريق ؛ فقد وضعه على عينيه لحظة ، فأبصر به طفلين يتعاركان فى غرفة مغلقة ، فى إحدى الدور الواقعة على جانبىْ الطريق ، فشغله عراكُهما عن النظر إلى سيارة قادمة كادت تَدهمُه ، لولا أنَّ أمَّه جذبت يده ، فنجا قبل أن تطويَه السيارةُ تحت عجلاتها . . . ثم لم يَمض بعد ذلك إلا خطَوات ، حتى رأى منظراً آخرَ مُثيراً لم يره غيرُه من السائرين فى الطريق : رأى ثعبانًا يتلوَّى على نفسه ، فى جِراب يحملُه رجلٌ على ظهره ، وهو يمشى فى الطريق بهدوء واطمئنان ، والناس يمشون إلى جانبه مطمئنين مثلَه ، لأنهم لا يرَوْن الثعبانَ الذى يتلوَّى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فى جرابه ؛ وقد امتلأت نفسُ رفيق ذُعراً حين رأى هذا المنظرَ المثير ، وأسرع يعدو نحوَ الرجل الذى يحملُ الجرابَ ليحذرَه ، مخافة أن يلدغَه الثعبان ؛ ولكن الرجلَ لم يهتمّ بتحذيره ، فقد كان يعلمُ أن فى جرابه ثعبانًا ، لأنه حاو من الحُواة المشهورين بألاعيبهم فى المدينة ، ولا بدّ له من الاستعانة بالثعابين فى مهنته . . .

ومشى رفيق فى طريقه بعد ذلك ، ولكن المنظارَ ظلّ يُريه مناظرَ أخرى كثيرة ، لا يراها غيرُه من الناس ، بعضُها يُثيرُ العجبَ والدهشة ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعضُها يثيرُ الفُضُولَ والرغبة فى معرفة السبب ، وبعضها يدعو إلى القلق والخوف ؛ وكل هذه المناظر كانت تشغَلُه عن النظر إلى الطريق ، أو الالتفات إلى حركة المرور ، أو الاستماع إلى نداء أمه حين تدعوه لشىء وهو ماش إلى جانبها ؛ ولذلك آثرَ أن يخلَعَ المنظارَ عن عينيه ، ويضعَه فى جيبه ، حتى بلغا بابَ الدار ، فوضعه ثانيةً على عينيه . . .

وكان أبوه قد عاد من عمله منذُ لحظات ، فلم يكد يراهما قادمَين حتى قال لرفيق وعلى شفتيه ابتسامةٌ لطيفة : إن لك معى هديةً ثمينةً يا رفيق ، مكافأةً على نجاحك . . .

قال رفيق ولم يزل المنظارُ على عينيه : أعرفُ ذلك يا أبى ، وأعرف أنك تُخفى هذه الهديةَ فى جيب صدارك ، وإن شئتَ أخبرتك بها فهى ساعة ، ولكن عقربَيْها لا يُشيران إلى الوقت الحقيقى ، فإن الساعةَ الآنَ السادسة ، والعقربان يشيران إلى الساعة الثالثة ! . . .

فتح الأبُ فمَه مدهوشًا وهو يُمدُّ يده إلى جيب صداره ليُخرجَ الساعة ، ثم ينظرُ فيها ويقول : مَن أنبأك بهذا السر يا رفيق ؟ . . .

قال رفيق وهو يشيرُ إلى المنظار : هذا . . . منظارُ الأسرار

ولم يكن الأبُ قد تنبَّه من قبلُ إلى أن رفيقًا يضعُ على عينيه منظاراً ، فلما رآه يشيرُ إليه تنبَّه ، فقال : حسَن ، تريد أن تخبرَنى بأنك اشتريت منظاراً ؛ ولكنك لم تخبرْنى من أين لك علمُ هذه الساعة ، وأنا لم أخبرْ بأمرها أحداً ؛ لأنى لم أعلمْ بنجاحك فى الامتحان إلا منذ ساعة ؟ . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان رفيقٌ قد خلع المنظار عن عينيه ليجلُوَ إطارَه ، ثم عاد فوضعه على عينيه ونظر نحو أبيه ، وقال : قلت لك قد أخبرنى هذا المنظار ، كما أخبرنى الآن أن فى جيبك شهادةَ المدرسة ، وفيها علاماتى على كل مادة من مواد الدراسة ، وكلها علاماتٌ ممتازة ، إلا علامةَ الرسم ، فإنها دونَ الامتياز بقليل ؛ ولكن ناظرَ المدرسة لم يوقعْ على الشهادة بإمضائه ، لأنى لا أرى اسمَه بين أسماء الموقعين فى ذيل الشهادة !

قال الأب وقد بلغت الدهشةُ منه مبلغًا عظيمًا : من أين لك علمُ هذا كله يا رفيق ؟ هل أنت تقرأُ الغيب ؟

قال : بل أقرأ ما تراه عيناى ، وقد رأت عيناى الشهادةَ فى جيبك . وقرأت كل ما فيها من علامات وتوقيعات !

أخرج الأبُ الشهادةَ من جيبه ونظر فيها ، فإذا كلُّ ما قاله رفيقٌ صحيح ، كأنها كانت صحيفةً مبسوطةً تحت عينيه ، لا ورقةً مطويَّةً فى جيب أبيه . . .

وقبل أن يتوجه الأبُ إلى ولده بسؤال آخر ، سمع دقَّ جرس الباب ، فأسرعت الأمُّ لترى مَن الطارق ، ورفيقٌ يتبعُها بعينيه ، ولكنها قبل أن تفتحَ البابَ سمعت صوتَ رفيق يقول : إنه عامل شركة الكهرباء ، قد جاء يطلُبُ قيمةَ الاستهلاك الشهرى !

وكان الأمرُ كما قال رفيق ، فدُهش الأب ، ودهشت الأم ؛ ولكن دهشةَ عامل الكهربا كانت أشدَّ من دهشتهما حين قال له رفيق : لا تحاول البحثَ فى دفترك عن قيمة المطلوب منا ؛ فإنك لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحملُ فى حقيبتك إلا دفترَ الجانب الشرقى من المدينة ، أما الدفترُ الآخر فأظنُّ أنك قد نسيته فى مقر الشركة !

وكانت هذه هى الحقيقة، وقد عرفها رفيق قبل أن يعرفَها عاملُ الشركة ، لأن منظارَه العجيبَ أراه الدفترَ قبل أن يخرجَه العاملُ من حقيبته . . .

٤

دهش أبو رفيق دهشةً عظيمةً حين عرف حقيقةَ هذا المنظار الذى يلبَسُه ولده ، كما دُهشت أمه مثل هذه الدهشة ؛ ولكنهما لم ينظرا إلى الأمر نظرةً جديَّة ، فلم يعتبرا هذا المنظارَ إلا كما يعتبران لُعبةً من اللعب ؛ ولكن الأمرَ كان أخطرَ من ذلك كثيراً . . .

فقد ذهب رفيقٌ فى اليوم التالى إلى المدرسة ، وهو يحملُ منظارَه ؛ فلما جاء مدرسُ اللغة يحملُ كراسات الإنشاء ، استقبله رفيقٌ واقفًا ، ثم قال له محتجًا : كيف تمنحُنى يا سيدى ستَّ درجات من عشر ، وتعطى تلاميذَ أكثرَ منى غلَطًا ، ثمانىَ درجات ؟ . . .

قال المعلم غاضبًا : ومن أين لك أن تعرفَ هذا وأنا لم أدفعْ الكراسات إلى أصحابها بعد ؟

قال رفيق : لقد عرفت ، وإن كانت الكراساتُ لم تزَلْ فى يدك ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأرى بينها كراسةً ليس عليها درجاتٌ ولا علاماتُ تصحيح ؛ وأظنك يا أستاذى قد نسيت تصحيحَها ! . . .

فازداد المعلم غضباً وقال له : اجلس يا رفيق ، وانتظرْ حتى أعطىَ التلاميذَ كراساتهم ، ثم اسألْنى عما تشاء ! . . .

وكم كانت دهشةُ المعلم بعد ذلك، حين اكتشف أن بين الكراسات كراسةً ليس عليها درجاتٌ ولا علاماتُ تصحيح ، لأنه نسى أن يصححَها كما قال رفيق ؛ فسأله : من أين عرفت يا رفيقُ أنى نسيت تصحيحَ هذه الكراسة ؟

قال رفيق مبتسماً : لقد عرفتُ هذا ، كما عرفت أن فى حقيبتك شَطيرتين ، لأنك فيما أظن لم تتناولْ فَطورَك بعد ؛ وأن فى أحد جيوب سُترتك منديلين ، والجيبُ الآخرُ ليس فيه منديل

مدَّ المعلم يده إلى جيبه ، فرأى الأمر كما قال رفيق ؛ فازداد دهشةً وعجباً ، وقال له : من أين لك علمُ هذا كله ؟

قال رفيقٌ وهو يتهيأُ للعودة إلى مقعده ، والابتسامةُ لم تزل تَبرُقُ على شفتيه : هذا سر خصنى الله به . . .

ولما جلس المعلمُ إلى مقعده فى حجرة الدراسة ، وهمَّ أن يُخرجَ قلمَه ليخُطَّ به بعضَ كلمات فى كراسة التحضير ، لم يجد القلم ، ففتح الدرجَ ليبحثَ عنه ، ولكن رفيقاً بادره قائلا : إنه مختبئٌ بين طيَّات حافظتك يا سيدى ! . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥

كانت الأحاديثُ التى دارت بين رفيق ومعلميه فى هذا اليوم ، وبينه وبين زملائه ، تدعو كلها إلى الدهشة العظيمة ؛ فقد ظلَّ واضعًا منظارَه على عينيه طُول اليوم ، يبحثُ عن الأسرار ، ويكشفُ المخبآت ، ثم يخبرُ بها أصحابَها . . .

ولم يكدْ ينتصفُ النهار ، حتى كان ذلك المنظارُ العجيبُ موضعَ الحديث بين كل تلميذين فى المدرسة ، ثم بين المعلمين بعضهم وبعض ، ثم بين المعلمين وناظر المدرسة . . .

ولم يصدقْ ناظرُ المدرسة فى أول الأمر ما أخبره به المعلمون ، فاستدعى رفيقًا إليه ، ثم سأله : ما خبرُ هذا المنظار يا رفيق !

قال رفيق باسما : إن زملائى يا سيدى يُسمُّونه منظارَ الأسرار ؛ لأننى أستطيعُ به أن أرى كلَّ سر مخبوء ؛ فإن شئت أخبرتك بخلاصة الرسالة التى تحتفظُ بها فى جيب صدارك !

فاحمر وجهُ الناظر حياء ؛ لأنها رسالةٌ بعث بها إليه أخوه الذى يعملُ حمَّالا فى ميناء نيويورك ، يطلبُ إليه فيها أن يبعثَ إليه ببعض المال ، لحاجته إليه فى علاج أمهما المريضة ، وفى شراء كسوة الشتاء لها !

ولم يكن رفيقٌ يقدر مدى تأثير العبارة التى قالها فى نفس الناظر

المحترم ؛ ولكنه لما رأى احمرارَ وَجْنتيه من شدة الحياء ، احمر وجهُه كذلك مستحيًا ، ثم طأطأ رأسه وهو يستأنفُ قوله : معذرةً يا سيدى إننى أعنى أن هذا المنظارَ العجيبَ يستطيعُ أن يُريَنى الأشياء البعيدة ، وأن يُقرئَنى الرسائل المطويَّةَ فى جيوب أصحابِها ، إن أذِنوا لى فى قراءتها !

قال الناظرُ ليغيرَ مَجرَى الحديث : أرنى هذا المنظارَ لأختبره يا رفيق . . .

فدفع رفيقٌ إليه المنظار ، ولكنه حين وضعه على عينيه ، لم ير به شيئًا مما كان يراه به صاحبُه ؛ فازداد لذلك عَجبُه ودهشته ، واعتقد أنه منظارٌ عجيبٌ حقا ، لأنه لا ينفُذُ إلى المناظر البعيدة فيراها ، إلا إذا كان على عينَىْ رفيق نفسه ، أما إذا وضعه غيرُه على عينيه ، فإنه لا يزيدُ على أى منظار آخر ، من المناظير التى يضعُها كثيرٌ من التلاميذ على عيونهم . . .

* * *

ولم يكد ينتهى اليومُ المدرسى ، حتى ذهب تلاميذُ المدرسة جميعًا إلى أهاليهم ، ليحدثوهم عن « منظار الأسرار » العجيب ، الذى يلبسُه زميلهم رفيق ؛ وذاع النبأ فى مئات من بيوت المدينة . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦

وكان الموعد الذى حدَّدته المدرسةُ لحفلتها السنوية ، بعد ثلاثة أيام ؛ فرأى ناظرُ المدرسة أن يُضيفَ إلى بَرنامَج الحفلة شيئًا جديداً ، فطلب إلى رفيق أن يستعدَّ للمشاركة فيها ؛ ثم دعا آباءَ التلاميذ وأمهاتِهم جميعاً لحضور هذه الحفلة ، كما دعا مخبرى الصحف ، والمشهورين من أهل المدينة ، لمشاهدة « لُعبة » جديدة يقدمها التلميذُ رفيق . . .

وكان رفيقٌ ومنظارُه قد ذاعت لهما شهرةٌ عظيمةٌ فى المدينة كلها ، فكان الإقبالُ على حفلة المدرسة شديداً جداً ، حتى ضاق مكانُ الاحتفال بالمدعُوين ، ورضىَ كثيرٌ منهم أن يقفوا على أقدامهم كلَّ الوقت ، لضيق المكان عن وضع كراسىٍّ للجميع . . .

وعرضت المدرسةُ فى الحفلة كلَّ أنواع نشاطها العلمى ، والرياضى ، والاجتماعى ، وكانت كلها تدعو إلى الإعجاب ؛ ولكن المدعوين لم يهتمُّوا بها اهتمامًا كبيراً ، لأنهم لم يحضُروا جميعًا إلا ليشاهدوا ألاعيبَ رفيق ، صاحب منظار الأسرار . . .

فلما فرغت المدرسةُ من عرض كل أنواع نشاطها ، صعد ناظرُ المدرسة إلى المنَصَّة ، ثم وقف يقول للمدعوين :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيها السادة . . .

إليكم لعبةً جديدة ، لم تشاهدوا مثلَها فى حفلة من حفلاتنا السابقة، يقدمُها لكم التلميذُ رفيق ... إنه يستطيعُ أن يعرفَ عددَ الأزرار فى قميص كل منكم ، وعددَ النقود فى جيوبكم ، وأرقامَ الصُّكوك المالية فى حوافظكم ؛ وأكثرَ من ذلك ، يستطيعُ أن يقرأ ما فى حقائبكم من الرسائل ؛ فلْيختبرْه كل منكم بما شاء . . .

ثم جلس الناظر ، ووقف رفيقٌ على المنصة ، ومنظارُه على عينيه ، ينظرُ به يَمْنةً ويَسْرة ؛ فلم تكد تَهِلُّ طلعتُه حتى دوَّت القاعةُ بتصفيق التلاميذ وهم يهتفون باسمه . . حين ذاك ووقف قسيسٌ هرِمٌ وراءَ الصفوفَ يقول فى حدّة : ليست المدارسُ مكانًا لمثل هذا العبث الفارغ ، فإن الغيبَ لا يعرفهُ إلا الله ، وكلُّ دعوى غير تلك باطلة ، لا يصدقها العقلُ ولا يؤمنُ بها القلب ! . .

فأجاب رفيقٌ وهو ينظرُ إليه من فوق المنصّة على بعد كبير : صدقتَ يا أبانا ، فإن الغيبَ لله وحدَه ، وما زعمتُ ولا زعم أحدٌ هنا أننى أعرفُ الغيب ؛ وإنما ترى عيناىَ فأصفُ ما رأيت ؛ ودليلى على ذلك أن فى جيبك وثيقةً على سيدة ، بدَين كبير ، قد استحق السدادَ منذُ أمس ، وأظنك كنت فى طريقك إلى المحامى لتقيمَ عليها الدعوى . .

جلس القسيسُ صامتًا ولم يَنبِسْ بكلمة ، وأخذ يتحسَّسُ جيبَه ليطمئنَّ إلى أن الوثيقةَ لم تزل به ؛ ولكنه قبل أن يجلسَ ، كانت سيدةٌ فى الصفِّ الأول قد وقفت ، ومدَّت بصرَها إلى وراء ، حيث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان القسيسُ واقفًا ، ثم نظرت إلى رفيق وهى تقولُ فى حدة كذلك : لستُ مَدينةً له ولا لأحد غيره ، فقد أدَّيتُ له دينَه قبل موعد الإداء بوقت طويل ، ولكنى لم أستردَّ منه الوثيقة ، ثقةً بأمانته ، فإذا كان على نية المطالبة بدينه لأدفعه إليه مرة أخرى ، طمعًا فى مالى ، فإنها خيانة ! . . .

فارتفعت أصواتُ الاستنكار من كل جوانب القاعة ، وتحولت الأنظارُ عن السيدة ، وعن رفيق ، متجهةً نحو المكان الذى يجلسُ فيه القسيس ؛ ولكن القسيسَ فى تلك اللحظة كان قد نهض من مكانه وأخذ يشقُّ الصفوفَ متقدمًا إلى الأمام وفى يده ورقةٌ يلوِّحُ بها ، وهو يقول كلامًا لم يسمعْه أحدٌ من شدة الضوضاء ؛ فلما وصل إلى حيثُ كانت السيدةُ جالسة ، دفع إليها الوثيقةَ وهو يقول : خذيها ، ولكن انظُرى ماذا كتبتُ فى ظهرها قبل أن تضَعيها فى جيبك ؛ لتعرفى أن الخيانةَ ليست من طبعى .

وكانت لهفةُ السيدة وهى تأخذُ الوثيقةَ من يده ، تَلفت النظر . وفى غَمرة الضوضاء التى أثارتها كلماتُ السيدة ، وحركةُ القسيس ، استأنف رفيقٌ كلامَه قائلاً : معذرةً إليك يا سيدى الأب ، معذرةً إليك يا سيدتى ، معذرةً إليكم جميعًا ؛ فقد فاتنى حين قرأت الوثيقةَ فى جيب الأب الأمين ، أن أقرأ ما كتب فى ظهرها ؛ وهأنذا أقرؤه الآنَ بوضوح ، فاسمعوا ما كتب : « سدَّدت السيدةُ هذا الدَّينَ قبل أوان السداد ، ولكنى لم أرُدَّ إليها الوثيقة ، لأنها لم تكن معى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حين دفعتْ إلىَّ الدين . »

حينذاك صاح القسيس : ولم أكن فى طريقى إلى المحامى كما زعمتَ أيها الصبىُّ العابث ؛ ولكنى كنت فى طريقى إلى السيدة لأؤدىَ لهـا الوثيقة ! . . .

٧

وكان أشدَّ الناس اهتماماً بهذه المُعجزة العجيبة ، مخبرو الصحف ؛ فقد تكاثروا على رفيق ليتحدثوا إليه ، ويستمعوا منه ، ويختبروا منظارَه ، ويتعرَّفوا حوادثَه ؛ فلم يمض إلا أيامٌ حتى نشرت كلُّ صحف المدينة صورتَه ، وأذاعت الكثيرَ من أخباره ، ونقلت عنها الصحفُ الأجنبيةُ هذه الأخبارَ وتلك الصور ؛ فاشتهر شهرةً لم تكن تخطُرُ له ولا لأهله على بال . . .

وكانت كثرةُ مقابلات الصحفيين له ، تعطلهُ عن دروسه ، وتعطلُ أباه عن عمله ، وتزحمَ دارَه بالوافدين عليه ؛ حتى ضاق رفيقٌ بنفسه ، وضاق أبوه وأمه ، وضاق ناظرُ المدرسة والمعلمون بكثرة الزائرين الذين يريدون أن يعرفوا مزيداً من الأخبار ، عن منظار الأسرار . . .

وذات يوم كان رفيقٌ فى طريقه إلى المدرسة ، فوقفت إلى جانبه سيارة ، وهبط منها رجلان يرتديان زىَّ رعاة البقر فى أمريكا ، أحدُهما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحيلٌ قصير ، يَشِعُّ الذكاءُ من عينيه ؛ والآخرُ طويلٌ ضخم ، تبدو عليه مظاهرُ الجبروت والقسوة ؛ فاعترضا طريقَ رفيقَ ، وقالا له وهما لا يعرفانه : أتستطيعُ أيها الفتى أن تدُلنَّا على منزل التلميذ رفيق ، صاحب منظار الأسرار ؟ . . .

فوضع رفيقٌ يديه فى خاصرته ، وقال مزهُوًّا بنفسه : أنا رفيق ، فهل أستطيعُ أن أعرفَ لماذا تريدان مقابلتى ؟ . . .

وفى أسرعَ من لمح البرْق ، وقبل أن يسمعَ رفيقٌ جواباً لسؤاله ، أمسكه الرجلُ الطويلُ الضخم ، ودفعه إلى السيارة دفعًا ، فى حينَ أسرعَ الرجلُ النحيلُ فجلس إلى عَجلة القيادة ، وأدار محركَ السيارة ، ثم اندفع بها إلى خارج المدينة . . .

جرى ذلك كله بسرعة عجيبة ، قبل أن يعرفَ رفيقٌ ماذا يريدان به ؛ وعَقَلت المفاجأةُ لسانَه ، فلم يستطعْ أن يصرُخَ أو يستغيث . . .

وأفاق رفيقٌ من ذَهْلته بعد لحظة ، فنظر إلى الرجل الضخم الذى يجلسُ إلى جانبه ، وقال له : لماذا تفعلان بى هذا ؟ وأين تذهبان بى ؟

أجابه الرجلُ النحيلُ وهو لم يزل جالسًا إلى عجلة القيادة ، والسيارةُ منطلقةٌ بهم فى أقصى سرعة : لا تخَفْ شيئًا يا رفيق ، فستعرفُ بعد قليل أننا لا نقصدُ بك سوءاً . . .

ثم صمت ، وصمت رفيق ، والحيرةُ لم تزل مُستولية عليه ؛ أما الرجلُ الضخمُ الذى كان يجلس إلى جانبه فى السيارة ، فلم يفتَحْ شفتيه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن كلمة واحدة ، وظل جالسًا يرقبُ رفيقًا فى صمت . . .

ولم تلبث السيارةُ أن خرجت من المدينة إلى الخلاء ، وهى ماضيةٌ لا تتوقف ، ورفيقٌ فى حيرتَه وقلقه ، لا يدرى ماذا يرادُ به . . .

ثم هدأت سرعةُ السيارة شيئًا بعد شىء ، حتى وقفت ، وهبط منها الرجلان وبينهما رفيق ، فقاداه برفق إلى كوخ صغير ، قائم على حدود مزرعة كبيرة ، تسرَحُ فيها قُطعانٌ من الماشية . . .

وكان فى الكوخ نَضَدٌ صغير ، عليه بقيةٌ من طعام ، وحوله بضعةُ كراسى ؛ فجلس الرجلان وأجلسا الفتى بينهما ؛ ثم مال عليه الرجلُ النحيلُ وهو يقولُ له بلطف : أرجو أن تثقَ بنا أيها الصديق ، فلسنا نُضْمِرُ لك إلا الإخلاصَ والمحبة ؛ ولم نحضُرْ بك إلا لنتحدَّثَ إليك فى أمر يَهُمّك بقدر ما يَهُمنا ، ونعتقدُ أنه سيعودُ عليك بخير كثير ! . . .

قال رفيق وقد اشتد به الضيقُ والقلق : لو كان فى الأمر خيرٌ ما حملتُمانى حَملا إلى سيارتكما بهذه القسوة ؛ فاتركانى أعُدْ إلى المدينة ، فلست بحاجة إلى خير ينالُنى من طريقكما ! . . .

قال الرجلان : لا تُسرعْ بالغضب يا رفيق ، ومعذرةً إليك من هذه الوسيلة التى اتخذناها مُكرَهين ، للاجتماع بك فى هذا الكوخ البعيد عن عيون الفُضوليين ؛ فإن المشروعَ الذى نريدُ أن نحدّثَك فى شأنه ، يجب أن يظلَّ سرًا بيننا وبينك ، لا يطلعُ عليه أحد ، وإلا سبقَنا غيرنا إلى الإنتفاع به !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال رفيق مدهوشًا : أيَّ مشروع تَعْنيان ؟ إنني لا أكاد أفهمُ حرفًا واحداً مما تقولان !

قال الرجلُ النحيل : صبراً ، فسنخبرُك بكل شيء ، على أن تعاهدَنا منذُ الآنَ أن تكونَ لنا شريكًا مخلصًا ؛ ولك علينا أن نقاسمَك الثروةَ الضخمةَ التي سنظفرُ بها ، فيكونَ لك منها نصيبٌ بقدر نصيبِ كلٍ منّا . . . . . .

ظل رفيق صامتًا برهة ، لا يدرى ماذا يقول ؛ فقد وجد في حديث الرجلين إغراء قويًا ، وإن لم يفهم على وجه التحديد ماذا يريدان ؛ ومن أجل ذلك التزم الصمتَ حتى يعرفَ كلَّ شيء على حقيقته . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال رفيق : والآن ماذا تريدان منى أن أفعل ، وماذا أستطيعُ أن أساعدكما به ؟

قال الرجلان : ألست تملكُ منظارَ الأسرار ؟ . . فإنك تستطيعُ أن تساعدَنا به مساعدةً عظيمة ، فى معرفة الأرض التى تختبئُ تحت قشرتها مناجمُ الذهب ؛ فلا نتعبُ فى حفر الأرض إلا ونحن على ثقة كاملة بالحصول على ثمرة عملنا ! . . .

فكَّر رفيقٌ برهةً وهو ينقلُ عينيه بين الرجلين ، ثم قال : ولكنى لا أراكما من المشتغلين بصناعة التعدين فى مناجم الذهب ؛ لأن عليكما ثيابَ الرعاة ، فمن أين لكما الرغبةُ فى الاشتغال بهذه الصناعة ؟

قال الرجلُ النحيل : لقد كان أبى مشتغلاً بهذه الصناعة ، ولكنه خسِر مالَه ولم يحصِّلْ شيئًا ؛ فقد كان يتكلفُ نفقات طائلةً فى حفر الأرض التى يظنُّ أن فى باطنها ذهبًا ، ولكنه لا يحصُلُ فى النهاية إلا على مقاديرَ قليلة ، لا تعادلُ ما بذله من نفقات الحفر ؛ فلو أنه كان يملكُ منظاراً مثلَ منظارك ، لعرف أين يضعُ فأسه ليحصُلَ على الثروة بأقل النفقات . . .

وقال الرجل الطويل : وكان أبى رئيسَ عُمَّال الحفر مع أبيه ؛ وقد مات كذلك فقيراً ولم يحصلْ شيئًا ، فاضطُررت أن أعملَ مع رفيقى راعيينْ من رُعاة البقر ، وهى — كما تعرفُ — صناعةٌ ليس من ورائها ربحٌ كبير ؛ فلما سمعنا بنبأ منظار الأسرار . . . . . .

فقاطعهما رفيق قائلاً : قد عرفتُ . . . وقد رضيتُ أن أكونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شريكًا لكما ، فإن شئتما بدأنا عَملنا منذ اليوم ؛ ولكن أين تريدان أن نبدأ . . .

هبَّ الرجلان واقفَين وقد بدت فى وجهيهما أماراتُ السرور ، فاعتنقا الفتى يُقبلانه ، ويمنّيانه كما يمنيان أنفسَهما بالغنَى والثروة ؛ ثم قال الرجل النحيل : إن عندى مصوَّرات جغرافيةً دقيقة — من مخلَّفات أبى — لمنطقة « ووفنج » ، التى يعتقدُ علماءُ طبقات الأرض أن فى تلالها كثيراً من الذهب ؛ فما دمنا قد اتفقنا على المشاركة فى العمل ، فهيَّا إلى ووفنج منذ الآن ، حيث تنتظرُنا الثروةُ والغنى والسعادة .

— ووفنج ؟ ما أبعد المسافةَ بيننا وبين تلك المنطقة النائية !

هكذا قال رفيقٌ لنفسه ؛ فقد خشىَ أن يقلَقَ والداه لغيابه ، إن ذهب إلى هنالك قبل أن يخبرَهما ؛ فالتفت إلى الرجلين قائلاً : قد قبلتُ ما عرضتماه علىَّ ، فهل تأذنان لى فى الذهاب إلى أبى لأخبرَه ثم أعودَ إليكما ؟

قال الرجلُ النحيلُ وهو يضعُ يده على كتف رفيق : قد كان هذا ممكنًا قبل أن نطلعَك على السر كله ، أما الآنَ فلا . . .

قال رفيقٌ متوسلاً : هل تُسيئان الظنَّ بى ، وقد عاهدتكما على الإخلاص ؟

قال الرجل : معذرة ، إنك تعرفُ الآنَ كلَّ شىء عن مشروعنا ؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلو أن الشيطانَ وسوسَ لك ، لذهبتَ وحدك ولم تعُدْ إلينا ؛ وهذا أمرٌ لا نسمح به

قال رفيق : ولكن أبى وأمى لا يعرفان أين ذهبت ! . . .

قال الرجلُ الغليظ : فذلك خيرٌ من أن يعرفا أنك قد مُتَّ فلن تعودَ إلى الحياة ؛ فاختَرْ أخفَّ الأمرين على أمك وأبيك .

وكانت عينا الرجل تَقْدَحان شرَراً ، فعرف رفيق ما يَعنيه بهذا القول ؛ وخشىَ إن استمرَّ فى المعارضة أن يغلبهما الغيظُ فيعتديا عليه فى هذا المكان القفر ، حيث لا يملكُ دفاعاً عن نفسه ؛ فطأطأ رأسَه فى استسلام وهو يقول : أنتما وما تشاءان ! . . .

٨

مضت السيارة بالشركاء الثلاثة فى طريق طويل ، تعلو بهم فوق أكمَة ، ثم تهبطُ فى غَوْر ، ثم تسيرُ فى واد ، ثم تعودُ فتصعَد ؛ ولم تزل سائرةً بهم حتى أظلم الليل ، فوقفوا برهةً رَيْثما يتناولون عَشاءَهم ؛ وكان عَشاءً خفيفاً ، مكوَّناً من بعض الشطائر وبعض الفاكهة ؛ فلما فرَغوا من طعامهم ، استأنفوا السَّيرَ فى الظلام ، وأخذ الرجلُ الجالسُ إلى جانب رفيق يغنى بعضَ أغانى رُعاة البقر ، ليُؤْنسَ زميليه ؛ ورفيقٌ صامتٌ هادئ ، لا يُحْدثُ صوتاً ولا حركة ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأفكارُه تتواثَبُ بين الخوف والقلق والوَحشة ، وبين الأمل فى الثروة العريضة المنتظَرة ؛ وفجأةً هتف به جارُه : رفيق ، إن منظارَك معك فيما أظن ، فهل تُرينى إياه ، فقد سمعتُ به وقرأت عنه ، ولكنى لم أرَه !

قال رفيق وقد وضع المنظارَ على عينيه : ها هو ذا على عينىَّ ، ولكنك لا تستطيعُ أن تراه فى هذا الظلام ، أما أنا فأستطيعُ أن أقرأ به الآن ما فى قلبك من أسرار ! . .

فعقد الرجلُ يديه على صدره ، وابتعد شبراً عن رفيق وهو يقول هامساً : ماذا تقرأُ من أسرار قلبى ؟ . . . . . .

قال رفيق : أرى فى قلبك أنك تريدُ أن تستولىَ على المنظار لتتخلَّصَ منى ؛ ولكنْ هيهات ، فإن منظارى لا يستطيعُ أحدٌ غيرى أن يرى به ، فاحذرْ الغدرَ يا صديقى . . .

قال الرجلُ النحيل : لا تخشَ غدراً يا رفيق ، فأنت منذُ اليوم شريكُنا على الخير والشر ؛ وما عليك إلا أن ترشدَنا بمنظارك إلى الأماكن التى يكثُرُ فيها الذهب ، حتى نكشف عنه ونستخرجَه ، ولك من الثروة مثلُ نصيب كل منا ، من غير أن تبذُلَ جُهداً أو تحملَ مشقَّة .

قال الرجلُ الغليظ : نعم ، من غير أنْ تبذلَ جهداً أو تحملَ مشقة ، إلا إن بدا لك أن تَخونَنا وتهرُب ، لتستقلَّ بالعمل وحدك ، فحينذاك لا نجاةَ لك من الموت بأيدينا !

بلع رفيقٌ ريقَه وهو يقولُ فى صوت خافت : ولماذا أخونُكما ؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم صمت ؛ واستأنفت السيارةُ سيرَها بينَ الآكام والأغوار والوديان ، ورفيقٌ لا يفكرُ فى شىء غير أمه وأبيه ، اللذين فارقهما مُكرَهًا إلى حيث لا يعرفان ولا يعرفُ أحد . . .

ولم تزل السيارةُ ماضيةً بالشركاء الثلاثة ، حتى وصلت إلى ووفنج ، فهبطوا منها جميعًا ، وأخذوا يبحثون عن مكان صالح لإنشاء كوخ خشبى يقيمون فيه ؛ ولم يلبثوا أن وجدوا حُطامَ كوخ قديم ، فأصلحوه واتخذوه بيتًا لهم . . .

وكان أولَ عمل فكَّر فيه رفيقٌ بعد ذلك ، هو السؤالُ عن مكتب البريد فى تلك المنطقة ، ليكتبَ رسالةً إلى أبيه وأمه ، يُطمئنهُما فيها على أسباب غيابه ، ويَعِدهُما بأسباب الغنى والثروة ؛ وكان الرجلُ النحيلُ يراقبُه بدقَّة وهو يكتبُ رسالتَه ، ولم يأذنْ له فى إرسالها إلا بعد أن حذف منها بضعَ كلمات ؛ ليُخفىَ عن أبويه مكانَ وجوده ، خشيةَ أن يحضُرا إليه ، فيحرضاه على فسخ الشركة بينه وبين زميليه . .

وكان مكتبُ البريد يبعُدُ نحو ثلاثة أميال عن المكان الذى أقيمَ فيه الكوخ ، وكان الطريق إليه صخريا حادًّا ، كثيرَ المرتفعات والمنخفضات ؛ فلم يجدْ رفيقٌ وسيلةً للوصول إليه إلا المشى ، وصَحبه الرجلُ النحيلُ على الطريق ، حارسًا ومُؤْنسًا ؛ أما الرجلُ الغليظُ فبقى فى انتظارهما إلى أن يعودا . . .

ولما عادا بعد ساعتين ، كان الرجلُ الغليظُ قد باع السيارة لقافلة من المسافرين كانت مارَّةً بالطريق ؛ فانقطع بذلك أملُ رفيقٌ فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إمكان العودة إلى أهله من غير إرادة صاحبيه ؛ فقد كان عقلُه يُراودُه بأن يُغافلَهما فيهرُبَ بالسيارة راجعًا من حيثُ أتى ، إذ كان قد تعلَّم من قبلُ سياقةَ السيارات ؛ أما الآن وقد ذهبت السيارة ، فقد انقطع كلُّ ما بينه وبين أهله من أسباب الصلة القريبة ! . . .

وكانت المنطقةُ التى يريدون البحثَ فيها عن الذهب ، تبعُدُ عن الكوخ نحو ميلين ؛ فكان عليهم أن يقطعوا كل يوم طريقًا شاقًا إلى تلك المنطقة ، ثم يعودوا فى المساء إلى الكوخ ؛ ولم يكونوا يقطعون ذلك الطريقَ خفافًا ، بل كانوا يذهبون بين الصخور وهم يحملون الفئوسَ والمجارفَ والمكاتل ، ثم يعودون فى المساء كما ذهبوا ، حاملين تلك الآلات على أكتافهم ، وهم يتلفتُون حوالَيْهم ، خشيةَ أن يفاجئَهم اللصوصُ فى هذه المنطقة الموحشة ، ليستولُوا على ما جمعوه من الذهب !

ولم يكن نصيبُ رفيق من العمل سهلاً ، فقد كان يحملُ مثلَ رفيقيه بعضَ هذه الآلات فى الذهاب وفى الإياب ؛ أما إذا وصلوا إلى أرض الذهب ، فإنه لم يكن يتكلفُ جهداً ، إلا أن يضعَ منظارَه على عينيه ، ويمشىَ بين رفيقيه منحنيًا ، كأنه راكعٌ للصلاة ، وهو يحدقُ فى الأرض بمنظاره ، باحثًا عن الذهب تحت التراب ؛ ولم يكن هذا العملُ هينًا فى أوله ، فإن تحت التراب أشياءَ كثيرةً غيرَ الذهب ، كان رفيقٌ يراها بمنظاره ، فتشغَلُه عن العمل الذى جاء من أجله ؛ وقد حدث ذات مرة ، أن رأى ثعبانًا ضخمًا يعيشُ فى جُحر خفى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحت الصخور المتراكبة ، فذُعر حين رآه ، وجرى وهو يصيح : ثعبان ! ثعبان !

وجرى رفيقاه وراءه وهما لا يريان شيئًا ؛ ولم يزل يجرى مذعوراً ، حتى عثَر بصخرة ، فانكفأ على وجهه ، وسقط المنظارُ عن عينيه وكاد يتحطم ، ولكنَّ اللهَ سلَّم . . .

ثم لم يلبثْ رفيقٌ أن أتقن عمله ، وتعوَّدت عيناه رؤيةَ الأشياء القريبة والبعيدة تحت التراب ، والاستدلالَ على مواضع الذهب فى باطن الأرض ؛ وقد حَصَلوا فى أول يوم على ملء مِكْتَل من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذهب الخالص ، دلّ رفيق زميليه على مكانه ، ثم جلس هادئاً يرقبهما وهما يحفران التراب ويفتتان الصخور ، والعرق يتصبب منهما غزيراً كأنما يستحمّان فى ماء حارّ ، حتى وصلا إلى الذهب فاستخرجاه ؛ وكان فرح رفيق فى هذا اليوم عظيما ، فجلس يعبث بالذهب كما يعبث الصبيّ بالتراب وقطع الصخر ، ثم نام ليلته يحلم أحلاماً كثيرة سعيدة ! . . .

وفى اليوم التالى ، عثروا على ملء ثلاثة مكاتل من الذهب ، فحملوها على كواهلهم وعادوا إلى الكوخ سعداء ، وهم من شدة الفرح بما وجدوا ، لا يكادون يحسون بثقل ما يحملون . . .

ولم تمض إلا أيام ، حتى كانت أوعيتهم كلها قد امتلأت ذهباً ؛ ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يملكون إلا قليلاً من الطعام ، وقليلا من الماء . . .

٩

كان أبو رفيق وأمه فى قلق شديد لغيابه ، لا يعرفان ماذا جرى له ؛ ولكنهما لم يلبثا أن تلقيا رسالة منه ، ينبئهما فيها أنه فى « أرض الذهب » ، يبحث عن الثروة فى باطن الأرض ، ويعدهما بقرب العودة إليهما مثقلاً بما يحمل من أكداس الذهب اللامع . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الأبُ حين قرأ هذه الرسالة : لقد كنا فى غنىً عن كل هذه المتاعب يا بنىّ ، فإن عندنا ما يكفينا من المال !

ولكنه مع ذلك كان يسبَحُ بخياله وراءَ تلك الثروة المنتظرة ، وقلبُه يخفُقُ بآمال عظيمة . . .

أما أمُّه فقالت : ألم تلاحظْ يا زوجى أنه لم يُنْبِئْنا فى رسالته باسم الأرض التى يبحثُ فيها عن الذهب ؟ إنى لأخشى أن يكونَ ضحيَّةً لجماعة من المحتالين ، يفجَعوننا فيه بالخيانة والغدر ! . . .

ثم وضعت كفيَّها على وجهها وأخذت تبكى !

وأما رفيقٌ نفسُه ، فكان فى تلك اللحظة جالساً على صخرة ناتئة فى أرض الذهب ، وبين يديه أكداسٌ من الأصفر الرَّنَّان ، ورفيقاه على بُعد منه يحفران الأرض ، ويفتتان الصخورَ بمشقة ، والعرقُ يتصبَّبُ منهما غزيراً ؛ ولكنهما لا يُبالِيان بما يجدان من العَناء ، لأنهما يطمَعان فى الحصول على مزيد من الذهب . . .

وكان رفيقٌ فى ذلك اليوم ضيقَ النفس جداً ؛ فقد غاب عن أبويه عشرين يوماً ، لا يدرى ماذا جرى لهما خلالَها ، وقد ظلاَّ يتراءيان له فى المنام ثلاثَ ليال متتابعة ، فى صورة محزنة أليمة ، فأقلقه ذلك عليهما قلقاً شديداً ، وودَّ لو كان له جناحان يطيرَ بهما إليهما ، فيُطمئنَهما ويطمئنَّ عليهما . . .

وكان فى ضيقه وقلقه ينظرُ إلى الذهب المكدس بين يديه ويقولُ لنفسه : ما نفعى بكل هذا الذهب ، وقليلٌ منه يكفينى لحياة سعيدة ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل ما نفعى بالحياة كلها إذا كان أبواى العزيزان قد أصابهما مكروه ؟

ولم يلبثْ أن كرَه الذهب ، وصار منظرُه فى عينه بَشعًا بغيضًا ، كأن شُعاعَه وهو يتلوَّى تحت الشمس ، ثعابينُ سامَّةٌ تنهشُ قلبَه وتنفثُ السمَّ فى دمه . . .

وكان يعلمُ أن الكوخَ ليس فيه إلا قليلٌ من الطعام وقليلٌ من الشراب ؛ فلم يُقلقْه ذلك ، بل حمله على الأمل فى قرب الرحيل ؛ ولكن الرجلَ النحيلَ لم يلبث أن ذهب ماشيًا إلى قرية قريبة ، فاشترى بقليل من الذهب طعامًا كثيراً وشرابًا وفاكهة ؛ فخشىَ رفيقٌ أن يكونَ ذلك سببًا لإقامة طويلة فى ذلك المكان القفر . . .

ولما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، وهو ممتلئُ القلب همًّا وغمًّا ، سمع الرجلَ النحيلَ يقولُ لصاحبه : اسمع يافات ، لقد بدا لى أن نتهيَّأ منذ الغد لرحلة إلى أفريقية ، حيث آمُلُ أن نحصُلَ على مقاديرَ أكبرَ من الذهب ، ، ما دام هذا الصبىُّ معنا ومنظارُه على عينيه ! . . .

فاشتدَّ القلقُ برفيق ، وعلم أنه لا خلاص له من هذا الأسْر إلا بالحيلة ؛ فلن يتركَه هذان الطامعان يعودُ إلى أمه وأبيه ، لأنهما يخشَيان أن يتركَهما وينضمَّ إلى شركاء آخرين ، يستعينون به على اكتشاف مناطقَ جديدة لاستخراج الذهب ؛ وإذنْ فسيظلُّ أسيراً فى أيديهما مدى الحياة ، لا يرى أهلا ، ولا ينتفعُ بمال ، ولا يتمتعُ بحرية . . .

« وما فائدةُ المال إذا كان لا يمنَحُ صاحبَه حياةً سعيدةً حرَّة ؟ »

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كذلك سأل رفيقٌ نفسه ؛ فأجابه هاتفٌ من ضميره :

لا فائدةَ للمال إذا لم تعشْ به سعيداً حُرًّا ، ويعشْ به أهلُك معك أحراراً سعداء ! . . .

وعرف رفيقٌ منذ تلك اللحظـــة ، أن عليه أن يختارَ بين شيئين لا ثالث لهما : إما الحرية ، وإما الذهب !

وصمم منذ تلك اللحظة ، أن يظفرَ بحريته ، ولو فقَد فى سبيلها المالَ والحياة . . .

ولم يكن يملكُ فى تلك اللحظة إلا وسيلةً واحدة ، فلم يتردَّدْ فى تنفيذها ، فانتحى ناحيةً بعيدةً عن شريكيَه ، ثم ألقى منظارَه على الأرض فتحطم . . . ثم صاح متباكيًا : منظارى ! . . . منظارى ! . . . منظارَ الأسرار ! . . .

وجاء صاحباه على صياحه ، فأخبرهما أن المنظارَ قد انزلق عن أنفه فسقَط على الأرض . . فتحطَّم . . . ثم أخفى وجهه فى يديه كأنه يبكى . . .

وتبادل الرجلان النظرات ، وأطرقا إلى الأرض محزونين ؛ ثم رفع الرجلُ النحيلُ رأسَه وهو يقولُ فى أسف : لا فائدةَ من الحزن ؛ فلنتهيأ للرحيل . . . . . .

وفى صباح اليوم التالى ، رحلت الجماعةُ بما حصلتْ عليه من الذهب ؛ فلما باعتْه كان نصيبُ رفيق منه حقيبةً كبيرةً مملوءةً بالأوراق المالية . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت مفاجأة سارة ، حين وصل رفيقٌ إلى أبوَيه وهو يحملُ حقيبتَه بما فيها من ثروة ضخمة ؛ ولكنَّ فرحَ أمه بعودته ، كان أكثرَ من فرح أبيه بتلك الثروة ، التى لم يكن يحلَمُ بالحصول عليها بجهاد السنين . . .

وعاش رفيقٌ وأبواه فى أمريكا ، أغنياءَ من أصحاب الملايين ؛ ولكنهم لم ينسَوْا لحظةً واحدة ، لُبنانَ وطنهم الأصيل !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرية الملعونة

١

كان « الشيخُ بركات » ، وزوجته « أمُّ الخُيُر » ، يعيشان في كوخ صغير ، على رَبوْة عالية ، تُشرفُ على قرية قريبة ؛ وكان فقيرَين ، لا يملكان من حُطام الدنيا شيئًا ، إلا هذا الكوخَ الذى يعيشان فيه ، وحديقةً صغيرةً تُحيطُ بالكوخ ، وبقرةً تحلُبُ لهما اللبن ، وخليَّةَ نحل واحدة ، تُخرجُ لهما كلَّ عام شيئًا من العسل ، وكَرْمةَ عنب تتسلَّقُ جدارَ الكوخ ، وترمى فروعَها على عريش ضيق أمامَ الباب .

وكان وحيدين ، ليس لهما بنتٌ ولا ولد ، ولا أهلٌ ولا أقارب ؛ فكان الشيخُ بركات يرعى بنفسه البقرة ، ويزرعُ بيده الحديقة ، ويتعهَّدُ وحده النحلَ والكَرْم ؛ وكانت زوجتُه أمُّ الخير تنظفُ بنفسها الكوخ ، وتحلُبُ بيدها اللبن ، وتجهزُ وحدَها الطعام ؛ فإذا انتهتْ من كل ذلك ، جلست تَغزلُ بمغْزَلها بعضَ الصوف ، أو ترقّعُ بإبرتها بعضَ الثياب ، أو تنزلُ إلى الحديقة ، فتجمَعُ صُحبةً من الأزهار ، تزين بها كوخَها الصغير . . .

فإذا فرَغ الشيخُ بركات من عمله ، وفرَغت زوجتُه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمُّ الخير من عملها ، جلسا عند باب الكوخ ، يقطعان الوقتَ بالحديث ، ويَرْقُبان الطريقَ من بعيد .. فإذا مرَّ بهما ضيفٌ عابر ، أو غريبٌ مسافر ، تهلَّلا لرؤيته ، ونهضا لاستقباله ؛ فيتقدمُ إليه الشيخُ بركات ، باسطًا ذراعيه للترحيب ، مادًّا يديه بالتحية ؛ وتقومُ أمُّ الخير ، فتجهزُ للضيف طعامَ العشاء ، وتهيئُ له فراشَ النوم ، وتكونُ ليلةً من أسعد الليالى . أما إذا انقضى النهار ، وجاء الليل ، وانقطع الطريق ، ولم يمرَّ بهما ضيف ، أو يعبرُ الطريقَ غريب ، فإنهما يقومان من مجلسهما صامتَيْن ، ويدخلان الكوخَ مُطرقَين ، ويجلسان إلى المائدة وحيدين ، يبدو عليهما الأسفُ والوحْشة ؛ لأن الحظَّ لم يُسعدهما فى هذه الليلة بأحد من الضيوف .

كانت هذه عادتهما من قديم ؛ فقد كانا على فقرهما كريمين ، يُحبان الغريب ، ويُكرمان الضيف ، ويعطفان على المهاجر وابن السبيل ؛ وكانا يبالغان فى الكرَم والتحية ، ويزيدان فى العطف والمحبة ، كلما كان الضيفُ فقيراً أو مسكينًا ، أو عاجزاً أو ضعيفًا ؛ وكأنما كانا يشعُران — من طيبة قلبيهما — أن الناسَ جميعًا إخوتُهم وأهْلوهم ، يُحبّانهم محبَّةَ الأهل ، ويُعزّانهم معَزَّةَ الإخوة ، ولا يُضمران لأحد من الناس كراهةً ولا حقداً .

غيرَ أنهما كانا لا يُحبان أهلَ القرية المجاورة ، لأن أهلَها كانوا على عكس هذين الشيخين : لئامًا بُخَلاء ، لا يكرمون الضيوف ، ولا يألفون الغرباء ، ولا يعطِفون على المهاجرين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأبناء السبيل ؛ ولم يكن أهلُ هذه القرية — على بُخْلهم — فقراء ، فقد كانوا يعيشون فى واد خصيب ، ينمو فيه الزرع ، ويكثُرُ فيه الخير ، وتطيبُ فيه الثمار .

ويقال إن ذلك الوادىَ كان فى قديم الزمان بُحيرةً واسعة ، يملؤها الماء ، ويعيشُ فيها السمك ، وتتراءَى على صَفحتها صُوَرُ الجبال والتلال التى تحيطُ بها ؛ ثم جفَّتْ تلك البحيرة ، وغاض ماؤها ، وأصبحت على مَر السنين أرضًا يابسة ، ولم يبقَ فيها من آثار تلك البحيرة ، إلا نهرٌ صغير يجرى خلالَ الوادى ، بنىَ أهلُ القرية على شاطئه بيوتَهم ، وزرعوا حولَها الأشجارَ والنخيل ؛ فنمَتْ واستطالت ، ومدَّت فروعَها فى الهواء ، وبسطت ظلالَها على الأرض والماء ؛ أما ما بقى خاليًا من أرض ذلك الوادى ، فقد اتخذه أهلُ القرية مَزرعة ، تُنبتُ لهم كل ما يشتهون من طيبات الزرع والثمار . . .

حقًا لقد كانت قريةً آمنةً مطمئنة ، يأتيها رزقُها رغَداً من كل مكان ، وكان أهلُها أولى الناس بأن تمتلىءَ قلوبُهم بحب الخير والبر ، والإحسان إلى المساكين ، والعطف على البائسين ؛ ولكنهم — وا أسفَا — كانوا أقسَى الناس قلوبًا ، وأشدَّهم جُحوداً وكُفراً بنعمة الله ؛ إذا مرَّ بهم الغريبُ الفقير ، سلَّطوا عليه كلابَهم تَنْبَحُه وتَعَضُّه ، وتركوا أطفالهم يجرون وراءه يرجُمونه بالحجارة ، ويُعَفرونه بالتراب ، ويُشَيعونه بالشتْم والسخريَة ؛ فلا يكادُ يخرجُ الغريبُ من القرية ، إلا بعد أن يعانىَ عَناءً وبلاءً من كلابها وأطفالها ، وقد يُمزقون ثيابَه ، أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخطَفون متاعه ، وربما عوَّرُوه وبَطَحُوه ؛ ويرى أهلُ القرية كلَّ ذلك ، فلا يمنعون أولادهم ، ولا يَحُوشون كلابَهم ؛ بل ربما ضحكوا سروراً واستحساناً لما يفعلون بالغرباء المساكين !

والعجيبُ من أمرهم ، أنهم كانوا إذا مرَّ بهم غنيٌ يركبُ عربتَه ، أو وجيهٌ يمتطى صَهْوَةَ حصانه ، رأيتَهم يبالغون فى تحيته وإكرامه ، ويتسابقون فى تعظيمه واحترامه . فإذا نبَحَه كلبٌ من كلابهم ، أو تطاولَ عليه طفلٌ من أطفالهم ، نزلَتْ على جسمه العصا بغير شفقة !

من أجل ذلك كان الشيخُ بركات ، وزوجتُه أمُّ الخير ، لا يُحبان اهلَ هذه القرية ؛ وكانا يتألمان أشد الألم ، إذا رأيا فقيراً أو عابرَ سبيل يمرُّ بالقرية ، ووراءه الكلابُ تَنْبَحُه بأصواتها المنكَرة ، والأطفالُ تَزُفّه وتطاردُه ، وتشيّعة بأقبح الألفاظ ؛ وكانا كلما سمعا نُباحَ الكلاب وصياحَ الأطفال ، عرَفا أن أحدَ الغرباء يمر بالقرية . . .

٢

فى مساء يوم من أيام الصيف ، جلس الشيخُ بركات وزوجتُه أمامَ الكوخ ، يتعشّيان ويرقُبان الشمسَ وهى تنحدرُ إلى مغربها فى هدوء وجمال ؛ فلما فرَغا من عشائهما ، قامت زوجةُ الشيخ ، فرفَعت عن المائدة ما فَضَل من طعام ، وكان كل الذى فَضَل ، شقّةً ناشفةً من الخبُز الأسمر ، وقليلاً من اللبن فى قَرار جرّة من الفَخّار . . .

قالت أمُّ الخير وهى ترفَعُ الفاضلَ من الطعام : يا خَجَلى لو مرَّ بنا فى هذه الليلة ضيف ، وليس عندنا من الطعام إلا هذه الكسْرةُ الناشفةُ من الخبز ، وهذه البقيَّةُ القليلةُ من اللبن !

فقال الشيخُ مبتسماً : لا تَحملى الهمَّ يا زوجتى العزيزة ، فرُبَّ قليل يباركُ اللهُ فيه فيكونُ كثيراً ؛ وكسرةٌ ناشفةٌ مع وجه ضاحك ونفس راضية ، ألذّ للضيف من مائدة حافلة بأطايب الطعام ؛ وابتسامةٌ لطيفةٌ فى وجه الضيف ، خيرٌ عنده من كل ما تُقَدمين من ألوان الطعام والشراب ؛ ومع ذلك فلا تنسَىْ أن عندنا بقيةً من عسل النحل ، وهذان عُنْقودان من العنب ، أرَاهما قد نَضَجا على الكَرْمة اليوم ؛ وإنه لَرزقٌ كريم ، وفضلٌ من الله عظيم ! . . .

وبينما هما يتحدثان ، سمعا صياحَ الأطفال ونُباحَ الكلاب يختلطُ بعضُه ببعض ، ويقتربُ منهما رُوَيداً رويداً ؛ فصاح الشيخُ بركات : آه يا زوجتى ! لا شكَّ أن أحدَ الغرباء المسافرين ، قد مرَّ بهذه القرية الملعونة ، ليبحثَ عن مكان يقضى فيه ليلتَه ، ولُقمة يَسُدُّ بها جوعتَه ، فبدلَ أن يقدمَ له أهلُها المأوى والطعام ، أطلقوا عليه كلابَهم وأطفالَهم كما هى عادتُهم !

فأجابت أمُّ الخير فى حزن وألم : أفٍّ لهؤلاء الناس إنهم لَيُشَجعون أولادهم على هذا الفعل الشنيع ، ويعودونهم هذه العادات المنكَرة ، وكلما رأوْهم يطاردون غريباً من الغرباء ، ضحكوا وأظهروا لهم الإعجاب والسرور ؛ يالَه من عمل قبيح ! لقد كان أوْلى بهؤلاء الناس ، أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعلموا أولادهم الأدبَ واللطفَ فى معاملة الناس ، وأن يكونَ فى قلوبهم شىءٌ من العطف على المساكين وأبناء السبيل ؛ ولكنهم قومٌ جفاةٌ قُساة ، لا رحمةَ عندهم ولا شفقة ، ولا حسَّ لهم ولا شعور !

فهز الشيخُ رأسَه أسَفًا وقال : أعتقدُ أن هؤلاء الأطفالَ لن ينالوا فى حياتهم خيراً ، وأن هؤلاء الناسَ لا بدَّ أن تحلَّ بهم نكبةٌ شديدة ، جزاءَ قسوتهم وعُدوانهم ؛ وإن قلبى ليُحدثُنى بأن اللهَ غاضبٌ عليهم ، وأن عقابَه نازلٌ بهم قريبًا ، وأخوفُ ما أخاف ، أن ينالنا شىءٌ من العذاب بسبب مجاورتنا لهؤلاء الناس !

ثم رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم لا تغضبْ علينا ، ولا تؤاخذْنا بما فعلَ السفهاءُ منا !! »

قالت أم الخير : لا تخَفْ يا زوجى العزيز ، فنحن لا نفعلُ فعلَ السفهاء ، وما دام اللهُ يمُدُّنا بكسْرة العَيْش ، فلا بدَّ أن نجعلَ منها نصيبًا للفقراء وأبناء السبيل !

٣

وكان صراخُ الأطفال قد اشتد ، ونباحُ الكلاب قد ازداد ، حتى تعذَّر على الشيخين أن يسمعَ أحدُهما صاحبه ؛ فقال الشيخُ وقد ضاق صَدرُه : ما سمعتُ قطُّ نُباحًا للكلاب عالياً كهذا !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأجابت زوجتُه : ولا رأيتُ أنا مثلَ هؤلاء الأطفال فى وَقاحتهم وسوء أدبهم !

ثم جلسا صامتَيْن ، وأخذت الضوضاءُ تشتدُّ وتقترب ، حتى اضطُرَّ الشيخُ أن يقومَ من مكانه ليرى ما هناك . . .

ونظر الشيخُ بركات ، فإذا عندَ سَفْح التل رجلان غريبان ، أحدُهما طويلٌ ضخم ، والآخرُ قصيرٌ نحيل ، وهما يسيران فى ضعف وإعْياء ، ويقصدان نحوَ باب الكوخ ؛ وحولهما كلابُ القرية تَنبحُهُما وتتعلَّقُ بأثوابهما ، والأطفالُ من ورائهما يصيحون ويهللون ، ويَسُبُّون ويشتِمون ، ويقذفون الرجلين بالحجارة والطين ، وكلّ ما تصل أيديهم إليـــه .

وكان الرجلُ القصيرُ يتلفَّت كثيراً إلى الوراء ، ويخوِّف الكلابَ كلَّما هجمتْ عليه ، بعصًا قصيرة كان يحملُها فى يده ؛ أما الرجلُ الطويل ، فكان يمشى فى هدوء إلى الأمام ، لا يتلفَّت ولا يهتم . . .

وكان منظرُ الرجلين يدلُّ على أنهما فقيران ، لا يَملكان قرشًا واحداً ، وكانت ملابسُهما أثوابًا ممزَّقة ، وخُلقانًا مُهَلْهَلة ؛ ولعل هذا هو السببُ الوحيدُ الذى جعل كلابَ القرية وأهلَها ، يحتفلون بهما هذا الاحتفالَ الهائل !

قال الشيخُ بركات لزوجته أم الخير : تعالى معى يا زوجتى العزيزة ، نستقبلْ هذين الضَّيْفين الغريبين .

فأجابت زوجتُه : اذهبْ أنت فاستقبلهما يا زوجى العزيز ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَدعْنى أتدبَّر فى عشائهما ؛ فإنى أعتقدُ أنهما جائعان !

قال الشيخ : أحسنت ، فلا شكَّ عندى أن قُواهما قد انهدَّت من الجوع والتعب ، حتى لا أظنهما قادرَيْن على طلوع التل !

ثم انحدر من التل ليستقبلَ الضَّيْفين ، وأسرعت زوجتُه إلى الكوخ لتجهزَ العشاء .

تقدم الشيخُ باسطًا ذراعَيْه يقول فى فرح وانشراح : مرحبًا مرحبًا ، وأهلاً وسهلاً !! فابتسم أصغرُ الضيفين على رغم ما كان يبدو عليه من مظاهر الإعياء والتعب ، وأجاب بصوت كله نشاطٌ ومرَح : حيَّاك اللهُ أيُّها الشيخُ الكريم ! هذه تحيةٌ تختلفُ كلَّ الاختلاف عن تحية أهل هذه القرية ؛ فكيف رضيتَ أيها الرجلُ الطيبُ أن تعيشَ فى هذا الجوار السيئ ؟

فأجاب الشيخُ بركات مبتسماً : هذه إرادةُ الله ؛ ومَن يدرى ؟ فربما أراد اللهُ أن نقيمَ فى هذا المكان ، ليعوضَكما عن هذا اللقاء السيئ ، الذى استقبلكم به أهلُ هذه القرية !

فصاح الضيف : حسنًا أجبتَ أيها الشيخ ! والحقُّ أننا فى حاجة إلى ما يعوضُنا عما لَقينا من هؤلاء الأشقياء الصغار ، فقد نثَروا علينا كثيراً من الوَحْل ، حتى لوَّثوا وجوهَنا وثيابَنا ؛ وقد مزَّق أحدُهم جلبابى ، حتى اضطُررتُ أن أهْوىَ بعصاى هذه على طفل ، فانطلق يعوى كالكلب ، وأظنك لا تزالُ تسمعُه يعوى من بعيد !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤

فرح الشيخُ بركات حين رأى الرجلَ مَرِحًا طَرُوبًا ، مع ما كان يظهرُ عليه من أمارات التعب ؛ فقد كان يبدو أنه عانى كثيراً من المشقات فى سفره طولَ اليوم ، وأنه عانَى أكثرَ وأكثر ، من سوء المعاملة التى ختَم بها يومَه فى هذه القرية ؛ لكنه ما كاد يرى الشيخَ بركات ، حتى نَشِط وانتعَش ، وراح يصعَدُ التلَّ فى نشاط وخفة . . .

وكان الضيفُ الصغيرُ يرتدى زِيًّا غريبًا ، لم ير الشيخُ مثلَه من قبل ؛ كان على رأسه تَقِيَّةٌ منتفخةٌ ذاتُ جناحين ، قد كبَسها كبْسًا على رأسه ، حتى كادت تغطى أذُنيه ؛ وكان فى رجليه حذاءٌ غريب ، ليس له شبيهٌ فيما يلبَسُ الناس ؛ ومع أن الجوَّ كان حارًّا فقد كان يرتدى عَبَاءةً ثقيلة ، يلُفُّ بها جسمَه لَفًّا ؛ ويظهرُ أنه كان يلبَسُ هذه العباءةَ ليستُرَ بها ما عليه من الثياب البالية !

على أن الذى لفت نظرَ الشيخ وأثار دهشتَه ، هو ذلك النشاطُ العجيبُ الذى كان يبدو على الضيف ؛ فقد كان يصعَدُ التلَّ نشيطًا خفيفًا ، حتى خُيِّلَ إلى الشيخ أنه يقفزُ قَفْزاً ويطيرُ طيرانًا ، وأن قدمَيْه وهو يصعَد ، لا تَلمسان الأرض !

وحاول الشيخُ بركات أن يسايرَ الرجلَ فى سرعته فلم يقدرْ ؛ فقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضاحكًا : معذرةً يا صاحبي إذا كنتُ لا أستطيعُ أن أسايرَك فى الصعود ؛ لقد كنتُ سريعَ الخُطا عند ما كنتُ شابًّا ، أما الآن فقد ثَقُلَتْ قدماىَ وتقاربتْ خُطَاى.

فأجابه الضيفُ فى انبساط ومرح : لا شىء يساعدُ الإنسانَ على السير ، مثلُ عصًا كهذه يتوكَّأ عليها ؛ وقد كان من حسن حظى أن أحصُلَ على هذه العصا اللطيفة !

ثم رفع عصاه فى يده ، وهزَّها وهو يقول : إنها عصًا خفيفةٌ كما ترى ، ولكنها عجيبة !

٥

كانت هذه العصا مصنوعةً من خشب الزَّيْتون ، ولكنها كانت غريبةَ الشكل جدًّا ؛ فقد كان تحت مقْبَضها شىءٌ يشبه الجناحين ، وكان على جسمها شكلُ ثُعبانَيْن صغيرين ، يلتفَّان حولها متقابلَين ؛ وكان صُنعُهما فى غاية الدقة ، حتى حسب الشيخُ بركات أنهما ثعبانان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على قَيْد الحياة ، وخُيِّل إليه أنهما يتلَعَّبان حول العصا ؛ فقال وهو شديدُ العجب : حقًّا إنها عصًا مُدهشة ، إنها قطعةٌ عجيبةٌ من الفنّ !

وكان الضيفان قد وصلا إلى الكوخ ، فأشار الشيخُ بركات إلى دَكَّة من الخشب عند الباب وهو يقول : اجلسا يا رفيقَيَّ واستريحا فوقَ هذا المقعد ، إن زوجتى أمّ الخير قد ذهبتْ لتهيىء لكما العشاء .

وما كاد الرجلان يستقران فى مجلسهما ، حتى كانت أم الخير قد جاءت ، فحيَّت الضيفَين تحيَّةً طيبة ، ثم قالت فى كثيرٍ من الخجل : معذرةً يا سادة ، فنحنُ قومٌ فقراء ، ولكننا سنقدم لكما كلَّ ما عندنا من الطعام !

ألقى الضيفُ القصيرُ نفسَه إلقاءً على المقعد ، وألقى عصاه كذلك إلقاءً على الأرض .. وهنا حدث شىءٌ عجيبٌ حقًّا ، لَفَتَ نظرَ الزوجة العجوز ، واستَرْعَى انتباهَها ؛ فقد بدا لها أن العصا قفزَت على الأرض من تلقاء نفسها ، ونشَرَت جناحَيْها ، ووثَبَتْ فى حركة خفيفة حتى وصلت إلى جدار الكوخ ، فأسنَدتْ نفسَها إليه ، ثم وقفتْ ساكنةً بجانبه ، غير أن الثعبانين ظَلاَّ يتلوَّيان !

دُهشت المرأةُ العجوزُ حين رأت ذلك المنظرَ العجيب ، وهمَّتْ بأن تَلفت إليه نظرَ زوجها ، ولكنها لم تجدْ فرصةً لذلك ؛ فقد كان الشيخُ مشغولاً بالحديث مع الضيف الطويل ، فلم يلتفتْ إلى حركة العصا ، ولم يتنبَّهْ إلى إشارة زوجته .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦

قال الرجلُ الطويلُ وهو يحادثُ الشيخَ ويشيرُ إلى جهة القرية : ألم يكنْ هنا ، مكانَ هذه القرية ، بُحَيرةٌ كبيرةٌ فيما مضَى من الزمان ؟

قال الشيخ : لم أرَ ذلك بعينَىَّ يا صديقى ، وأنا كما ترى رجلٌ قديمٌ جدا ؛ ومع ذلك فقد تعودت منذ طفولتى ، أن أرى هذه الحقولَ والمروجَ كما أراها الآن ، وأن أرى هذا النهرَ الصغيرَ يترقْرَقُ ماؤه فى ذلك الوادى ، وهذه الأشجارَ العتيقةَ تظللُ شاطئَيه ، وهذه القريةَ القريبةَ تقومُ على جانبَيه ؛ وأظنُّ أنه لا أبى ، ولا جدى ، رأيَا هنا غيرَ ما رأيتُ ؛ وليس عندى شك فى أن هذه الحالةَ ستبقَى على ما هى عليه ، حتى يفنَى بركات العجوز ، وتفنَى بعده ذكراه !

فقال الرجلُ الطويلُ وفى صوته نبراتٌ من التهديد والوعيد : إنك يا صديقى لا تعرفُ ما يأتى به الغد ، ولا تستطيعُ أن تتنبأَ بما سيكون !

ثم هز رأسَه وضرَّس بأنيابه وقال : إن سكانَ هذه القرية قد تناسَوا المحبةَ والتعاطف ، وخلَتْ نفوسُهم من شعور الإنسانية ، الذى يدفعُ الإنسانَ إلى معاونة أخيه الإنسان ؛ فالخيرُ كلُّ الخير أن تعودَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البحيرةُ فى هذا الوادى كما كانت ، وأن تتلاطمَ أمواجها على مساكنهم من جديد !

كان الضيفُ يتكلم ، ونظراتُه مليئةٌ بالشر والغضب ، ولهجتهُ مُفْعَمةٌ بالتهديد والوعيد ؛ وكان كلما عبَس وكشَّر ، اسودَّ الشَّفَق ، واشتدَّ الظلام ؛ وكلما صاح وتوعَّد ، ردَّد الرعدُ صوتَه فى السماء ؛ فارتعدت فرائصُ الشيخ خوفًا ورُعبًا ، وأيقن أن هذا الضيفَ مخلوقٌ غير عادىّ ، وأنه لا بدَّ أن يكونَ إنسانًا له شأن ، على رغم ما يبدو من رَثَاثة ثيابه ، وهَلْهَلة ملابسه !

وما هى إلا لحظات ، حتى عاد الضيفُ إلى انشراحه وطَلاقته ؛ فهدأت نفسُ الشيخ بركات ، وذهب عنه الخوف ، وأخذ الثلاثةُ يتحدثون فى سرور وسلام ، وقد ارتفعت الكُلْفةُ فيما بينهم ، حتى كأنهم أصدقاء منذُ الطفولة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧

أما الضيفُ القصير ، فكان مَرِحًا خفيفَ الحركة ، كثير الفُكاهة والمداعبة ؛ فأعجب الشيخُ بظَرْفه وفُكاهته ، وراقَه مَرَحُه وانطلاقُه ؛ فقال له : إنك يا صديقى أظرفُ فتى صادفتُه فى حياتى ؛ ولكنى لا أدرى بماذا أسميك ، ولا بأى اسم أناديك !

فضحك الفتَى وقال : إذا كنتَ ترى حقًّا أننى ظريفٌ سريعُ الحركة ، فسمنى « الزئْبقَ » ؛ فإن هذا الاسمَ ينطبقُ علىَّ كلَّ الانطباق

فأخذ الشيخُ يرددُ الاسمَ على لسانه برهة ، ثم قال : إن اسمَك يا صديقى يبدو عجيبًا غريبًا !

وسكت لحظة ، ثم أشار إلى الضيف الطويل وقال : وصديقُك هذا ، أليس له اسمٌ غريبٌ كاسمك ؟

فأجاب الزئبقُ وقد بدا شكلُه غامضًا غيرَ مفهوم : تستطيعُ أن تسألَ « الرعد » عن اسمه !

فأخذت الدهشةُ الشيخ ، وتذكَّر عند ما سمع هذا الاسم ، ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السوادَ الذى كان يخالطُ الشفقَ حين عبَس الرجل ، وذلك الصوتَ الذى ردّده الرعدُ فى السماء حين تكلم ؛ فأيقن أنه أمامَ رجلين لا يُشبهان سائرَ الناس ، وأن وراءَ هذه الأسامى الغريبة ، معانىَ خفيّةً غيرَ واضحة ؛ وأخذ يصوّبُ النظرَ إليه ويُصعّده ، فبدا له أن هيئةَ الرجل ، وصوتَه ، ونظراته ، وكلَّ شىء فيه ، يجعلُ اسم « الرعد » منطبقًا عليه تمامَ الانطباق !

كان الرعدُ يتكلمُ فى رَزَانة وهدوء ، وكان صوتُه مؤثراً نافذاً عميقًا ؛ فأحبَّه الشيخُ بركات ، ووَدَّ لو يقضى حياتَه كلها يستمعُ إلى حديثه الساحر ، وشعر فى نفسه بميل شديد إلى أن يُفضىَ إليه بكل أسراره . على أن الشيخَ الطيبَ لم تكنْ له أسرار ؛ فقد كان رجلا بسيطًا ساذجًا ، وكانت معيشته غايةً فى البساطة والسَّذاجة ؛ لذلك لم يجدْ ما يقولُه للضيف ، إلا أن يحدثَه عن الحوادث التى مرت به فى السنة الماضية ، وعن رحْلاته القصيرة التى كان يقومُ بها غيرَ بعيد من كوخه ؛ وقص عليه شيئًا من تاريخ حياته وحياة زوجته أم الخير ، التى تُعينُه وتؤانسُه ، وتخففُ عنه أعباءَ الحياة .

ثم ختم حديثه قائلا : ونحن يا سيدى فقيران كما ترى ، لكننا قانعان راضيان ، لا ينقُصُنا من أسباب السعادة شىء ؛ وكل ما نرجوه من الله ، أن يُديمَ علينا نعمةَ الرضا والقناعة ، والإخلاص والمحبة ؛ حتى نموتَ معًا سعيدين ، كما عشنا معًا سعيدين !

فأشرقت على وجه الضيف إشراقةٌ من نور ، وابتسم ابتسامةً حلُوةً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

راضية ؛ وقال للشيخ بركات : إنك عجوزٌ طيب القلب ، ولا شكَّ أن رفيقةَ حياتك عجوزٌ طيبةٌ مثلُك ؛ فلْيحققْ الله رجاء كما ، وليستجبْ دعاء كما ! .. وفى هذه اللحظة ، رأى الشيخُ بركات سهماً لامعاً من الضوء ، قد خرج من بين السحُب ، فانبعث منه نورٌ ساطعٌ ملأ جوانبَ السماء !

وكانت العجوزُ أمُّ الخير ، قد جهَّزت العَشاءَ ووضعتْه على المائدة ؛ ثم أقبلت تدعو الضَّيْفَين للطعام وهى تقول : معذرة أيها السيدان ، فإن الطعامَ قليل ، ولو كنا نعلمُ بقدومكما ، لأخَّرْنا عشاءنا ، وقدَّمْنا لكما طعاماً خيراً مما نقدمُ الآن .. لقد صنعتُ بنصف لبن اليوم جُبناً ، ولم يبقَ من آخر رغيف عندنا إلا النصف !

فرد الضيفُ قائلا : كلُّ شىء منكما حسنٌ يا سيدتى ! فأرجو ألا تُرْهقى نفسَك ؛ إنَّ كلمةً طيبةً ، تَصْدرُ عن قلب يفيضُ بالإخلاص والعطف ، تجعلُ الطعامَ التافه أشهى طعام ؛ وقد أشبعَنَا وأروانا ما لَقينا عندكما من الترحيب وحسن اللقاء !

قالت العجوز : شكراً شكراً ! إنكما لكريمان ، وقد كثُر الخيرُ على قدومكما ؛ فهذا شىءٌ من العسل وجدتُه فى البيت ، وهذان عُنقودان من العنب قد جادت بهما اليومَ كرْمتُنا ! فصاح الضيفُ الطويل : ما هذا ؟ إنها وليمةٌ يا سيدتى !

فابتسم الزئبقُ وقال : حقّاً إنها وليمةٌ حافلة ، وسترَوْن كيف ألعبْ دَوْرى فى هذه الوليمة ؛ إننى لم أشعُرْ قطْ بالجوع كما أشعرُ به الآن !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقالت أمُّ الخير على زوجها وهى تقولُ فى هَمْس : إننى أخشَى إذا انفتحَتْ نفسُ هذا الرجل ، ألاَّ يجدَ كفايتَه من الطعام !

فابتسم الشيخُ ونهض واقفًا ، ثم أنهض الضيفين ، ودخلوا جميعًا الكوخ . وهنا حدث شىءٌ عجيبٌ جدا ! فإن عَصَا الزئبق التى كانت مستندةً إلى جدار الكوخ ، بسَطَتْ جناحَيها الصغيرين ، وأخذت تَنِطّ وتَحْجل ، حتى تخطَّت عتبةَ الباب ، ثم استمرت تنط وتَحجل ، حتى وصلت إلى الكرسى الذى يجلسُ عليه الزئبق ، فوقفت بجانبه واستندت إليه ؛ ولكنَّ الشيخَ وزوجتَه كانا فى شُغْل بضيفهما فلم يلاحظا شيئًا . . .

٨

جلس الضيفان إلى المائدة ، وكان كلُّ ما عليها من الطعام ، نصفَ رغيف من الخبز الأسمر ، وقطعةً صغيرةً من الجبن ، وشيئًا من العسل فى طبق صغير ، وعنقودين من العنب الأحمر ، وقليلاً من اللبن فى جَرَّة من الفَخّار ؛ فأفرغت السيدةُ كلَّ ما فى الجرة من اللبن ، فى قَدَحين اثنين ، وقدمت لكل ضيف قَدَحًا ، وتركت الجرةَ فارغةً على المائدة ، ليس فيها شىءٌ من اللبن ؛ فما كاد كلُّ واحد من الضيفين يُمسكُ قدحَه ، حتى رفعه إلى فمه ، وأفرغه فى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جوفه دفعةً واحدة ؛ ثم مدَّ الزئبقُ قدحَه فارغًا وقال : قليلا من اللبن يا أماه ، أروى به ظمئى ؛ فقد كان يومُنا حارًّا ، وكان سفرُنا بعيداً !

فأجابت العجوزُ فى حيرة وارتباك : يا عزيزى ، إننى فى منتهى الأسف والخجل ، فقد فرَغتْ الجرةُ من اللبن ، ولم يكنْ فيها غيرُ هذين القدحين ! . . .

ثم التفتت إلى زوجها وقالت : يا زوجى ، لماذا تناولتَ عشاءَك اليومَ مبكراً ؟

فصاح الزئبقُ وقد مدَّ يده إلى الجرة : يبدو لى أن الأمرَ ليس كما تَظُنين يا أمَّاه ، وأن الجرةَ لا يزالُ فيها شيءٌ من اللبن !

ثم أمسك الجرةَ فى يده ، وأخذ يصُبُّ منها اللبنَ فى كُوبه حتى امتلأ ، ثم أخذ يصُبُّ فى كوب زميله حتى ملأه كذلك !

دهشت العجوزُ دهشةً عظيمة ؛ فقد كانت على يقين بأن الجرة فارغة ، ليس فيها قطرةٌ واحدةٌ من اللبن ؛ فلما رأت ما رأت ، أخذ يداخلُها الشك ، وجعلتْ تحدثُ نفسَها قائلة : ربما كنتُ مخطئةً أو ناسية ، فإننى امرأةٌ عجوز ، والعجائزُ دائمًا عُرْضةٌ للخطأ والنسيان ! وعلى كل حال ، فلا بدَّ أن تكونَ الجرةُ الآنَ قد خلَتْ تمامًا ؛ فليس يمكنُ أن تتسعَ لأكثرَ من أربعة أقداح . . .

لكنها لم تكَدْ تنتهى من حديثها إلى نفسها ، حتى كان الزئبقُ قد أفرغ القدحَ الثانى فى جوفه كما أفرغ الأول ؛ ومدَّ يده بالقدح فارغًا يقول : يا لَه من لبن لذيذ ! اسمحوا لى بمقدار آخرَ من هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللبن ؛ فقد كان عطشى شديداً جداً .

كانت العجوز مُسْتَيْقِنَةً أن الجرةَ فى هذه المرة فارغة ، وأنه لم يبقَ فيها قطرةٌ واحدة ، فقد قَلَبَهَا الزئبقُ قَلْبًا وهو يملأ القدحَ الأخير ؛ لذلك أمسكت الجرةَ وكَبَّتْهَا على القدحين ، لتؤكدَ للزئبق أنها فارغة ؛ ولكن كم كانت دهشتُها عظيمة حين رأت اللبنَ ينزل من الجرة دافقاً ، فيملأُ القدحين ، ويسيحُ حولهما على المائدة ! . .

عند ذلك مَطَّ الثعبانان رأسَيْهما ، وتطاولا على المائدة ، وأخذا يلحَسان ما ساح فوقَها من اللبن !

فلما انتهى الزئبقُ من شرب القدح ، قال : والآن يا أماه ، أرجو أن تتفضلى علىَّ بقليل من العسل ، فى شَطيرة من الخبز .. فشطَرت العجوزُ شَطْرةً من الخبز ، وغَمَسَتْها فى قليل من العسل ، ثم ناولته إياها . . .

والعجيبُ أنها لم تجدْ الخبزَ وَقْتَئذ يابسًا جافًّا ، كما كان حين تعشَّتْ منه مع زوجها ؛ بل كان طريًّا حُلواً شهيا ، كأنما قد خرج لساعته من الفُرن ؛ وكان قد سقط منه بعضُ الفُتات ، فتذوَّقته ، فإذا هو حلوٌ لذيذ ، يختلفُ فى طعمه كلَّ الاختلاف ، عن ذلك الرغيف الذى عَجنتْه وخبزته بيديها !

أما العسل ، فقد كان شيئًا عجيبًا جداً ؛ كان لونُه أنقَى من لون الذهب ، وكان طعمُه شيئًا لا يمكنُ وصفُه ، وكانت رائحتُه تفوحُ وتنتشر ، كأنها مزيجٌ من عطر ألف زهرة من أزهار الربيع !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٩

ظلت العجوز فى دهشة وحَيرة ، لا تدرى أتصدّقُ ما ترى أم تكذب ، ولا تعرفُ إن كانت فى يقظة أو فى منام ؛ ولكنها أيقنت يقيناً لا شك فيه ، أن ما يجرى أمامَ عينيها شىءٌ خارقٌ للعادة ؛ فمالت على زوجها تقول فى هَمْس : أرأيتَ يا زوجى العزيز ؟ أسمعتَ فى حياتك بمثل هذا ؟

قال الشيخ بركات : إننى لم أر شيئاً غيرَ عادىّ !

قالت : ألم ترَ الجرة ؟ ألم تر ما حدث بها ؟

قال الشيخ : ربما كنت تَحْلُمين يا زوجتى ؛ ولو أن الجرةَ كانت فى يدى أنا ، وصَبَبْتُ منها اللبن ، لنظرتُ فيها جيداً ؛ فربما كان فيها لبنٌ أكثرُ مما ظننت !

فتنهّدت العجوز وقالت : آه يا زوجى العزيز ! لك أن تقولَ ما تشاء ، أما أنا فلا أزالُ على يقين بأن هذا شىءٌ غيرُ مألوف !

فهز الشيخُ كتِفَيه قائلا : ولم لا ؟ قد أكون أنا مخطئاً وتكونين أنت على صواب !

فى ذلك الوقت ، كان كل من الضيفين قد أخذ من العنب عُنقوداً وراح يأكلُ منه ؛ فلاحظت العجوزُ أن حجمَ العنقودين قد زاد ، وأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حبّات العنب قد كبرت وامتلأت بالعصير حتى كادت تنفجر ؛ فأخذت تسائل نفسها : هل يمكنُ أن يُنتَجَ هذا العنبُ من كرْمتنا ؟

وكان الزئبقُ يقذفُ العنبَ فى فمه حبّةً وراء حبّة ، وهو يقول فى فرح وانبساط : يا له من عنب لذيذ ! من أين لكم هذا العنبُ الحلوُ الشهىّ ؟

فردّ الشيخُ بركات قائلا : إنه من كَرْمتنا هذه الصغيرة ، التى ترى أغصانَها ملتفّةً على النافذة ؛ ولا أحسبُ أن عنبَها حلوٌ كما تظن !

فأجاب الزئبق : إننى لم أرَ فى حياتى أحلى مَذاقا منه !

واستمرّ يقذفُ الحبات فى فمه واحدةً بعد واحدة ، والعنبُ مع ذلك لا ينقُصُ شيئًا ، والعنقودُ بحاله كأنه لم يُمَسّ !

فلما انتهى من أكله ، أمسك القدحَ وقال مبتسماً : إذا سمحتما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لى بقدح آخر من هذا اللبن اللذيذ ، فإنى أكونُ قد تعشَّيْتُ كما يتعشى أمير !

عند ذلك نهض الشيخُ بنفسه ، وأمسك الجرةَ بيده ، وأنعمَ فيها النظر ، فما كان أشدَّ دهشتَه إذ رأى فى قرار الجرة قطرةً صغيرةً من اللبن ، قد أخذت تفورُ وتفور ، كأنها عينٌ من اللبن قد انبثقَت فى قرار الجرة ، ثم استمرت تتدفَّقُ وتزيد ، حتى امتلأت الجرةُ إلى حَرفها ؛ فدُهش الشيخُ دهشةً عظيمة ؛ وكان من حُسن الحظ أن الجرةَ لم تسقُطْ من يده وهو فى دهشته !

١٠

كان الزوجُ فى شك مما حدَّثتْه به زوجتُه ، فلما رأى ذلك بعينيه ، تأكدَ له أن هذين الرجلين ليسا كسائر الناس ، فصاح فى حَيرة ودهشة : من أنتما أيها السيدان ؟ وما هذه الأمورُ العجيبةُ التى نراها ؟

فأجاب الرعدُ فى صوته العميق الهادىء : ضيوفُك وأصدقاؤك يا بركات !

ثم مد يده بقدحه فارغًا وقال : أعطنى أنا أيضًا قدحًا آخرَ من اللبن ، وأرجو ألا يَنضُبَ أبداً مَعينُ جرّتك ؛ بسبب حنانك وشفقتك أنت وزوجُك ! إنكما أكرمُ زوجين رأتهما عيناى ؛ فليبارك اللهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكما فى هذه الجرة ، حتى ينالَ منها كلُّ غريب حقَّه ويستوفىَ نصيبَه ... ... !

وانتهى العَشاء ، وأخذ الضيفُ الطويلُ يُثْنى على الشيخين أجملَ الثناء ؛ وكان الشيخان مسرورَين كلَّ السرور ، لأن ما قدَّماه من الطعام القليل ، قد كفَى الضيفَين وفاض .

وأبدى الرجلان رغبتَهما فى النوم ؛ فقامت أمُّ الخير تهيئُ لهما الفراش ، ومال الشيخُ بركات على الزئبق يقولُ فى دهشة : بالله قل لى : أىُّ قوة تحت الشمس تستطيعُ أن تجعلَ من هذه الجرة القديمة ، يَنْبُوعًا من اللبن لا يَنْضُب ؟ وأىُّ سر عجيب هذا ؟

فابتسم الزئبق ، وأشار إلى عصاه قائلاً : هذه العصا هى سرُّ المسألة ، ولست أدرى ماذا أصنعُ لها . . . إنها دائمًا تلعبُ معى مثلَ هذه الألاعيب ؛ هى التى تأتينى دائمًا بعَشائى ، وأظنُّها تَسرقه ؛ ولو أننى كنت ممن يؤمنون بالسحر ، لقلت إن هذه العصاه مسحورة !

وكانت أمُّ الخير قد أعدَّت الفراش ، فنهض الضيفان ليناما ؛ فلما ترك الزئبقُ الغرفة ، بَسَطت العصا جناحيها ، وأخذت تَحجلُ وراءه ؛ فجعل الزوجان ينظران إليهما وهما فى غاية الدهشة ، وبقيا فى مكانهما يتحدثان طويلا عن هذه الأعاجيب المدهشة ، التى شاهداها فى هذه الليلة ، حتى غلبهما النوم ، فتمدَّدا على لوحين من الخشب ، فى جانب من الكوخ ، وتركا غرفةَ نومهما للضيفين ، وناما نومًا هادئًا حتى الصباح . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستيقظ الشيخان فى الصباح ، فوجَدا الضيفينْ يستعدان للرحيل ، فتَرَجَّاهما الشيخ بركات ألا يخرُجا ، حتى تحلُبَ زوجُه البقرة ، وتعملَ لهما فَطوراً ؛ لكن الضيفين فضَّلا أن يرحلا مبكرَيْن ، ليستطيعا أن يقطَعا مرحلةً من الطريق فى طراوة الصبح ، قبل أن تَحمىَ عليهما الشمس ويشتدَّ حرُّ النهار ؛ غير أنهما طلبا من الشيخين أن يسيرا معهما قليلاً ، ليُرْشداهما إلى الطريق . . .

١١

خرج الأربعةُ من الكوخ يتحدثون كأنهم أصدقاءُ من زمن بعيد ؛ فلما مشَوْا بضْعَ خَطَوات ، قال الشيخ بركات : لقد آنَسْتُمانا أيها الضيفان الكريمان ، وأسعدتمانا بهذه الزيارة ! أرجو ألا تغضَبا مما فعلَه سفهاءُ هذه القرية ؛ فلو أنهم يشعرون بمقدار السعادة التى يحُسها الإنسانُ حين يَحُل به ضيف ، لما كانوا على مثل هذه الأخلاق السيئة !

قالت العجوز : إنهم يرتكبون الخطيئةَ والعارَ بهذه الأعمال القبيحة ؛ وسنذهبُ إليهم اليومَ ونعاتبُهم على سوء فعلهم !

فابتسم الزئبقُ وقال فى خبث ومكر : أخشى إذا ذهبتما إليهم ألا تجدا منهم أحداً . . . . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهنا انقبض الرعد ، وظهر على وجهه الغضبُ والقسوةُ والشر ، وبدا شكلُه رائعًا مخيفًا ، حتى لقد سكتَ العجوزان وخافا أن ينطقا كلمة ، وأخذا ينظران إلى وجهه صامتَيْن ، كأنما ينظران إلى السماء حين تُنذرُ بالصاعقة ؛ وبدأ الرعدُ يقولُ فى صوت عميق نافذ : حينما تَقْسُو قلوبُ الناس ، ويذهبُ من نفوسهم شعورُ المحبة والعطف على الضعفاء ، فإنهم لا يستحقون أن يعيشوا على هذه الأرض ، التى خُلقت لتكونَ موطنَ الأخُوَّة للناس جميعًا !

كان صوتُ الرجل قويًّا رهيبًا ، ينفُذ إلى القلب ، ويهزُّ النفس ، كأنه يأتى من السماء ؛ فأطرَق الشيخان فى إشفاق وخوف ، كأنما يتوقَّعان أن يحدُثَ حادثٌ خطير . . .

حينئذ صاح الزئبقُ فى مرح وخفة : أخبرانى أين هذه القريةُ التى نتحدثُ عنها ؟ لقد اختفتْ عن عينَىَّ وأصبحتُ لا أراها.

فرفع الشيخان رأسَيْهما ونظرا ، فإذا القريةُ قد اختفت بأهلها وبيوتها وكل ما فيها ! ! أين بنيانها ؟ . أين سكانُها ؟ . . أين كلابُها التى كانت تنبَح ؟ . . أين أطفالها التى كانت تصيح ؟ . . أين ما كان

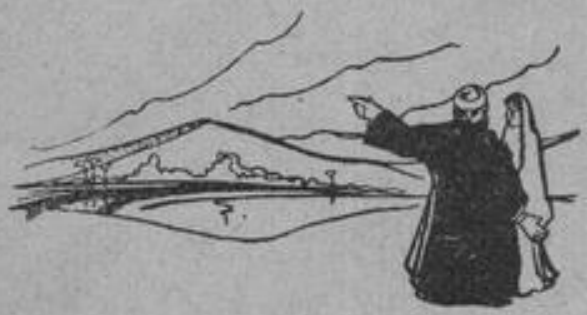

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هنا من مظاهر الحياة والعمران ؟ . . . لقد كان كلُّ ذلك قائمًا موجوداً تراه العينُ بوضوح ، حتى مساء أمس ؛ أما الآنَ فلا شيءَ من ذلك . . .

لقد اختفت القريةُ كلها كأنما ابتلعَتْها الأرض ، ولم يبقَ من آثارها شيءٌ تراه العين ، حتى ذلك الوادى الخصيب ، الذى كان يغطيه الزرعُ الناضر ، وتقومُ على جوانبه الأشجارُ الباسقة ، قد اختفى ؛ وحل محلَّ ذلك كله بحيرةٌ واسعةٌ تملأُ الوادى ، فلا شيءَ حولَها إلا الجبالُ والتلال ، يتراءى خيالُها فى الماء . . .

وظلت البحيرةُ ساكنةً فترةً قصيرة ، كأنما هى صورةٌ مرسومة ، ثم هبَّ على سطحها نسيمٌ هادىء ، فتموَّج ماؤها موْجًا خفيفًا هادئًا ، كأنما كانت البحيرةُ نائمةً فاستيقظت ودبَّتْ فيها الحياة ؛ وألقَتْ شمسُ الصباح أشعتَها على البحيرة ، فبدا لها بريقٌ ولمعَان ، وتحرك الماءُ نحو الشاطىء فى خرير موسيقى جميل ، وبدا منظرُ البحيرة طبيعيًّا مألوفًا ، كأنها قائمةٌ فى هذا المكان منذ قرون وأجيال !

١٢

تحيَّر الشيخان ، ونظر بعضهما إلى بعض يتساءلان : أكانا أمس فى حلم ، أم هما الآن يَحْلُمان ؟ لقد كانت هنا قرية ، ومساكن وسكان ، وحدائقُ وأشجار ، ومناظرُ واضحةٌ كلَّ الوضوح ، يَبْعُد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن تكونَ من صور الأحلام ؛ وها هما الآن يَرَيَان فى المكان نفسه منظراً آخر ، منظرَ هذه البحيرة يَتَرقْرَقُ ماؤها تحتَ الشمس ، ويتحركُ موجُها تحت النسم ، وتنعكسُ على صفحتها صُوَرُ التلال والجبال ؛ منظرٌ واضحٌ كلَّ الوضوح ، يَبْعُدُ كذلك أن يكونَ من صور الأحلام !

لقد كانت القريةُ موجودةً هنا حتى أمس ، أما الآنَ فقد ذهبَت وحلَّت محلَّها هذه البحيرة .. هذه هى الحقيقة . . « لا حول ولا قوة إلا بالله » ! هكذا صاح الشيخان ، ثم أردَفَا : « ماذا جرى يا تُرَى لجيراننا المساكين ؟ » ..

وهنا نطق الرجلُ الطويلُ بصوته المؤثر العميق — وكانت السماء تَقصفُ بالرعد ، كأنما تُرددَ صَدَى صوته — فقال : لقد ذهبوا جميعاً رجالاً ونساء ، فلم تبقَ منهم باقية ! لقد قَسَتْ قلوبهم ، وغَلظُت أكبادهم ، فلم يَعُدْ لبقائهم فى الوجود جمال ؛ لذلك عادت البحيرةُ إلى مكانها كما كانت فى الماضى البعيد ، وبسطت ماءها على الأرض ، لتنعكسَ عليها صورةُ السماء !

فقال الزئبق وهو يبتسمُ ابتسامةَ السخْرية والمكر : لقد انقلبوا جميعاً أسماكاً ؛ فإذا اشتهيت أن تأكلى سمكاً يا أماه ، فاطلُبى إلى زوجك الطيب أن يذهبَ إلى البحيرة بِصنَّارة ، ويصطادَ لك بضعَ سمكات من جيرانك القدماء .

فصاحت أم الخير وهى ترتعد : أوَّاه ! إن جسدى لَيَقْشَعرُّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلما تصوَّرتُ أنى أضعُ واحداً منهم على النار !

ثم استأنف الرعدُ كلامَه فقال : أما أنتما أيها العجوزان الكريمان ، فاطلبا ما تشاءان ، إنه لَيُسْعدُنا أن يتحققَ رجاؤكما ويُستجاب دعاؤكما !

فنظر الشيخان بعضَهما إلى بعض ، ثم قالا فى نفَس واحد : رجاؤنا إلى الله ألا يُفَرِّقَ بيننا الموت ؛ فكما عشنا معًا سعيدين ، نرجو أن نموتَ معًا سعيدين !

فأجاب الرعد : قد أجيبَتْ دعوتُكما !

ثم سكت لحظةً وقال : والآن فانظرا إلى كوخكما ! . . .

فالتفت الشيخان ، فإذا كوخهما الصغير قد صار قصراً عظيماً من المرمر الأبيض ؛ فابتسم الرعد وقال : وهذا مسكنكما فادخلا بسلام ، وعيشا معًا سعيدين ، تُكرمان الغريبَ والفقير ، كما كنتما تفعلان فى كوخكما الصغير !

فتأثر العجوزان ، وتغَرْغَرت عيونُهما بالدموع ، وما كادا يمسَحان دموعَهما وينظران ، حتى كان الضيفان قد اختفيا . . .

* * *

وظل العجوزان على عادتهما من إكرام الضيف وإيواء الغُرباء ؛ يذهبُ ضيوفٌ ويقدَمُ ضيوفٌ غير الذين كانوا بالأمس ، والشيخان سعيدان بحياتهما ، وبضيوفهما ؛ وبما يصنعان من الخير للناس . . .

وفى صباح يوم من أيام الصيف ، استيقظ الضيوفُ من نومهم ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجلسوا ينتظرون فى القصر أن يدخلَ عليهم العجوزان الكريمان ، بطلعتهما المُشرقة ، وابتسامتهما الحُلوة ، يدعُوانهم إلى الفَطور كعادتهما ، لكن العجوزين لم يَظهرا فى ذلك الصباح ؛ فلما طال الانتظار بالضيوف ، قاموا يبحثون عنهما فى كل ناحية من القصر ، فلم يعثروا عليهما .

وبعد حيرة وارتباك ، نظروا فإذا عند مَدخل القصر شجرتان عاليتان ، قد رسَخت جذورُهما فى الأرض ، وذهبت فروعهما فى السماء ، وتشابكت غصونهما ، وتقاربت رءوسهما ، حتى كأنهما تتعانقان ؛ فأخذوا يتساءلون بينهم : متى نَبَتَتْ هاتان الشجرتان ، وقد كان المكانُ خالياً بالأمس ؟

وفى هذه اللحظة ، هبَّ النسمُ على أغصان الشجرتين ، فسمع الضيوفُ حَفيفاً لطيفاً ، يشبهُ أن يكونَ همْساً بين رفيقين ، أو نجوَى بين حبيبين ؛ فتسمَّع الجميع ؛ فإذا إحدَى الشجرتين تقول : أنا بركات ! وإذا الأخرى تقول : أنا أمُّ الخير !

* * *

ولا يزال القصرُ المرمرى الأبيضُ قائماً فى موضعه فوق الرَّبوة المشرفة على البحيرة ، ولا تزالُ الشجرتان قائمتين على بابه ، ولا يزالُ المسافرون كلما أوَوْا إلى ظلهما الظليل ، سمعوا حفيفاً يهمسُ فى آذانهم بنغمة عَذبة وصوت لطيف : مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً ! !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com